كلية الآداب
قسم اللغة العربية وآدابها

الصورة النباتية في القرآن
"مفهومها ودلالاتها"

رسالة ماجستير

تحت اشراف
الأستاذ الدكتور

عاطف جودة نصر

رئيس قسم اللغة العربية

مقدمة من الطالب
أحمد عبد الله عيسى

١٤١٥هـ - ١٩٩٥م

صفحة العنوان

اســـم الطالـــب: أحمد عبد الله عيسى على

الدرجة العلمية: ليسانس آداب

القسم التابع له: اللغة العربية وآدابها

اســـم الكليـــة: الآداب

الجـامعـــــــة: عين شمس

ســـنـــة الـتـــخـرج: ١٩٩٠

ســـنـــة المـــنـــح

رسالة ماجستير

اســـم الطـالـــب: أحمد عبد الله عيسى على

عـنـوان الـرسـالـة: الصورة النباتية فى القرآن "مفهومها ودلالاتها"

اســم الـــدرجـــة: "ماجستير"

لجنة الاشراف

أ.د. عاطف جودة نصر

رئيس قسم اللغة العربية

تاريخ البحث: / / ١٩٩

الدراسات العليا

ختم الاجازة: أجرت الرسالة بتاريخ: / / ١٩٩

موافقة مجلس الكلية
/ / ١٩٩

موافقة مجلس الجامعة
/ / ١٩٩

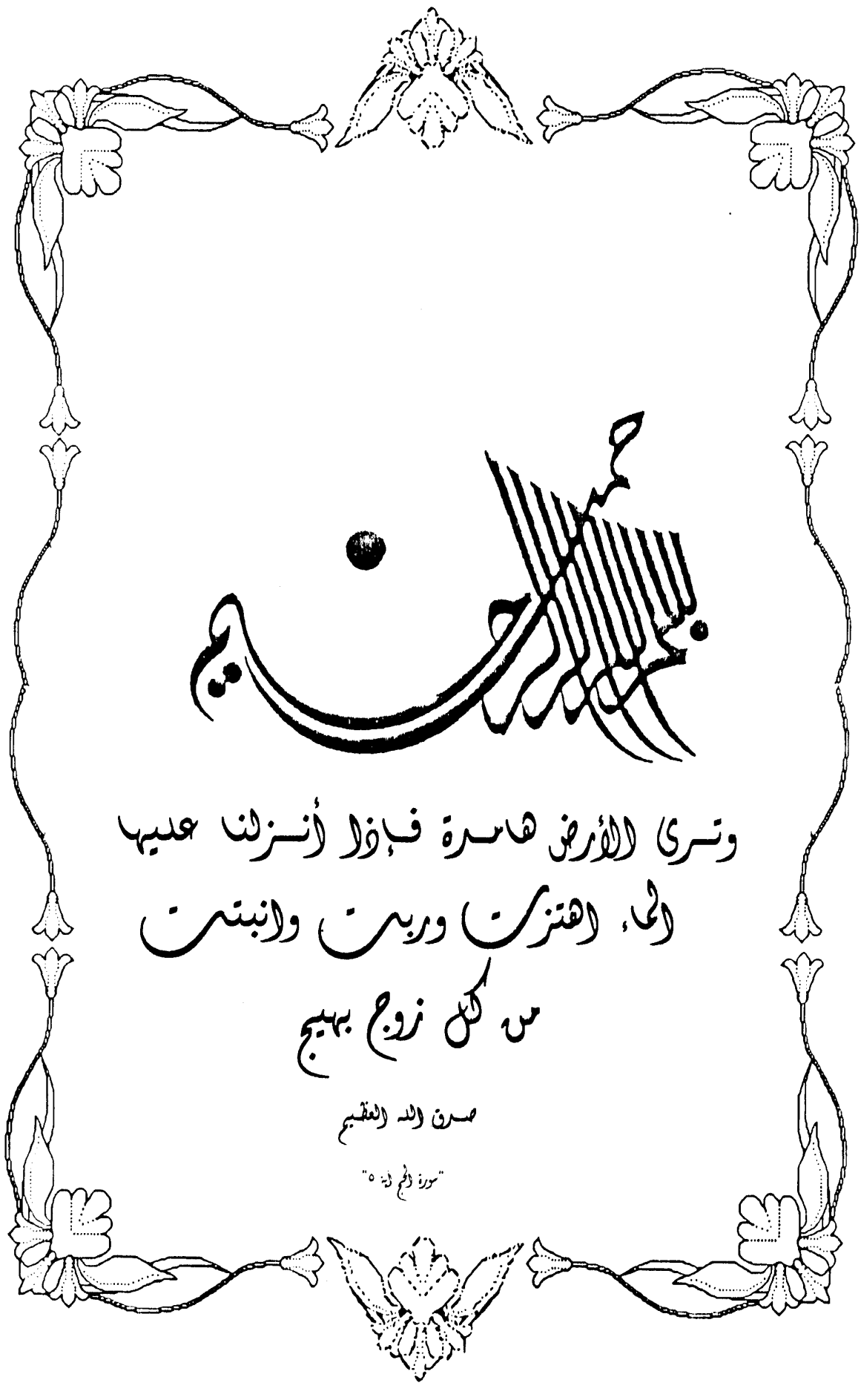

بسم الله الرحمن الرحيم

وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها
الماء اهتزت وربت وأنبتت
من كل زوج بهيج

صدق الله العظيم

"سورة الحج آية ٥"

إهداء

إلى والدي الكريمين اللذين فتحا لي أبواب جنة العلم،

وإلى أخوي العزيزين صلاح، ومحمد اللذين قاداني عبر رياضها،

أقدم لهم هذا العمل المتواضع كثمرة من ثمار غرسهم،

أحمد

كلمة شكر

أتوجه بالشكر للأستاذ ومعلمي، الأستاذ الدكتور/ عاطف جودة نصر، رئيس القسم، الذي تفضل مشكورا بالإشراف على هذه الدراسة المتواضعة، وأشكر فيه نفسه المقدرة للعلم، والتي نعمل جاهدة من أجله، فله مني خالص شكري وتقديري.

كما أتقدم بالشكر والتقدير إلى السادة الأساتذة حملة مشعل العلم أساتذتي في آداب الزقازيق، وآداب عين شمس، وأخص منهم بالذكر الأستاذ الدكتور/ محمود ذهني والأستاذ الدكتور/ فتحي عامر، والدكتور/ محمود عبد الحفيظ، والأستاذ الدكتور/ مصطفى الشكعة، والأستاذ الدكتور/ عبد القادر القط، والأستاذ الدكتور/ إبراهيم عبد الرحمن والأستاذ الدكتور/ أحمد كمال زكي، والأستاذ الدكتور/ لطفي عبد البديع، والدكتور/محمد يونس، والدكتور/ يحيى عبد الدايم فلهم جميعا شكري وعرفاني.

كما أشكر السادة الأساتذة الذين تفضلوا متواضعين لمناقشة هذه الرسالة

فهرس الموضوعات

المقدمة:	١
- معجم مفهرس لآيات النبات:	٣
- تمهيد فى التفسير الموضوعى للقرآن:	٢٠
- الفصل الأول: الظواهر الكونية وعلاقتها بالنبات	٢٩
- الفصل الثانى: الماء والنبات	٤٥
- الفصل الثالث: النبات بين الحياة والموت	٦٩
أولا: فى القرآن المكى.	٦٩
ثانيا: فى القرآن المدنى.	٨٣
الفصل الرابع: النبات بين الجنة والنار.	٩٦
أولا: النبات فى الجنة	٩٦
ثانيا: النبات فى النار.	١٠٨
الفصل الخامس: النبات وضرب الأمثال.	١١٨
مدخل:	١١٨
أولا: فى القرآن المكى	١٢٣
ثانيا: فى القرآن المدنى	١٣٢
الفصل السادس: النبات فى القصص القرآنى:	١٤٢
١- فى قصة آدم عليه السلام	١٤٤
٢- فى قصة موسى.	١٤٧
٣- فى قصة مريم.	١٥٢
٤- فى قصة يوسف.	١٥٤

تابع فهرس الموضوعات

٥- فى قصة يونس.	١٥٦
٦- فى قصة ابراهيم.	١٥٨
٧- فى سيرة محمد صلى الله عليه وسلم.	١٥٩
٨- قصة أصحاب الجنة	١٦٢
٩- سبأ وجناتهم.	١٦٤
الفصل السابع: النبات والتسبيح.	١٦٧
خاتمة البحث	١٧٦
مصادر ومراجع البحث	١٨٧
ملخص البحث باللغتين العربية والانجليزية	١

مقدمة البحث

الحمد لله الذى أنزل الكتاب على خاتم المرسلين، أنزله فى وقت بلغت العرب فيه من الفصاحة واللسن مبلغاً جديرا بأن يقابل بمعجزة، كانت من نفس جنس ما نبعوا فيه، فخرقت عاداتهم فى البيان وحسن اللسان، بعد أن تحداهم الله عز وجل أن يأتوا بمثل القرآن فلم يستطيعوا، وتحداهم أن يأتوا بعشر سور فلم يستطيعوا ثم بسورة... وكانت النتيجة أن ثبت عجزهم، وضعفهم أمام قدرة الله ومعجزته التى ميز بها محمداً - صلى الله عليه وسلم.

هذه المعجزة القرآن الكريم حملت بين ثناياها حديثا عن شىء مهم بالنسبة لكل كائن حى، وهذا الشىء هو النبات، إذ قدم القرآن أوصافاً دقيقة له، تدل على دقة اعجاز هذا الكتاب الخالد.

وبهذا يكون النبات من الموضوعات العديدة التى اشتمل القرآن عليها ، متحديا بها العرب، ومؤيداً لمحمد، ومؤكدا لقدرة الله تعالى، كل ذلك من خلال التوجيه إلى الطبيعة الغنية بمظاهر قدرة الله، ومن هنا كانت عناية المسلمين الأولين بالقرآن عناية كبرى شملت جميع نواحيه فكانت لها آثار مباركة، أفاد منها كل مظهر من مظاهر النشاط الفكرى والعلمى عرفه الناس فى حياتهم المادية والروحية.

من هنا كان انتباهى لدراسة أحد موضوعات القرآن الكريم، كتاب العربية الأول والأكبر، والذى لم يترك شيئا فى هذا الكون إلا تحدث عنه، ولم لا وقد خلق الله الكون لعبادته والتسبيح بحمده حتى النبات الذى تحدث عنه الفنانون بمختلف طوائفهم كل حسب وسيلة تعبيره، فى القديم والحديث لكن أحدا منهم لم يستطع رسم صورة رائعة مثل الصورة التى رسمها القرآن للنبات بأشكال وتنويعات دقيقة، ومهما تقدمت

الفنون ووسائلها فلن تأتى بمثل ما أتى به القرآن فى مجال تصويره لهذا الكائن الحى الدقيق.

لقد حظى النبات بجانب عظيم من عناية القرآن، جانب يجعله جديرا بأن يدرس دراسة شاملة وافية له. ووضح هذا عندما جمعت الآيات التى تتحدث عن النبات ووجدتها كثيرة متنوعة، شاملة لموضوعات مختلفة.

والقرآن كتاب العربية، الذى لاينتهى البحث فيه، ولا يصل الباحث فيه إلى قول فصل، ولا رأي قاطع وهذه أولى سمات القرآن،أن يظل مشغلة الناس إلى قيام الساعة، فكل يوم تتكشف فيه أمور جديدة، فيعكف الناس على دراسته وتفهمه، من أجل فهم حياتهم الفهم الصحيح الذى يتناسب والعقيدة الإسلامية السائرة وفق تطور الأزمان والعقول.

لهذا فإن هذه محاولة، يهمنى من ورائها قبولها عند الله ثم عند قارئيها. والله تعالى يقول [وما أوتيتم من العلم إلا قليلا] فهو الموفق والهادى إلى الطريق المستقيم.

معجم مفهرس لآيات النبات

آيات للكمبيوتر

أولا: الماء والنبات ودورة الحياة والموت:

وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ. (سورة الانبياء الآية ٣٠ مكية)٠

وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ. (سورة الحجر الآية ٢٢ مكية)٠

اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ. وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ. فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ. (سورة الروم الآية ٤٨ - ٥١ مكية)٠

وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا. لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا. وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا. (سورة الفرقان الآية ٤٨ - ٥٠ مكية)٠

إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ. (سورة لقمان الآية ٣٤ مكية)٠

وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ. (سورة الروم الآية ٢٤ مكية)٠

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ. (سورة الروم الآية ٤٦ مكية).

وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ. (سورة الشورى الآية ٢٨ مكية).

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ. (سورة الملك الآية ٣٠ مكية).

أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ. أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ. لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ. (سورة الواقعة الآية ٦٧ - ٦٩ مكية).

وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ. (سورة الانعام الآية ٩٩ مكية).

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ. يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ. (سورة النحل الآية ١٠ - ١١ مكية).

وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ. فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ. وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ. (المؤمنون الآية ١٨ - ٢٠ مكية).

وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا. وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا.

(سورة النبأ الآية ١٣ - ١٥ مكية)

وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ. وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ. رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ. (سورة ق الآية ٩ - ١١ مكية).

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ. هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ. (سورة لقمان الآية ١٠ - ١١ مكية).

أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ. (سورة النمل الآية ٦٠ مكية).

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ. وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ. (سورة فاطر الآية ٢٧ - ٢٨ مكية).

وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ.

(سورة النحل الآية ٦٥ مكية).

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ. (سورة العنكبوت الآية ٦٣ مكية).

وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ.

اسورة الزخرف الآية ١١ مكية).

وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ. اسورة الجاثية الآية ٥ مكية).

فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ. أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا. ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا. وَعِنَبًا وَقَضْبًا. وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا. وَحَدَائِقَ غُلْبًا. وَفَاكِهَةً وَأَبًّا. مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ.

اسورة عبس الآية ٢٤ - ٣٢ مكية

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ. اسورة السجدة الآية ٢٧ مكية).

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. اسورة فصلت الآية ٣٩ مكية).

وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ. ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. اسورة الحج الآية ٥-٦ مدنية).

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ.

اسورة الحج الآية ٦٣ مدنية).

ثانيا: النبات والاقتدار الإلهي:

وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ. وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ. لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ. سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ.

(سورة يس الآية ٣٣ - ٣٦ مكية).

وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ. إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ.

(سورة النحل الآية ١٣ مكية).

أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ. إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ. (سورة الشعراء الآية ٦ - ٧ مكية).

وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ. وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ. وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ.

(سورة الحجر الآية ١٩ - ٢١ مكية).

أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ. أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ. لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ. إِنَّا لَمُغْرَمُونَ. بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ. (سورة الواقعة الآية ٦٣ - ٦٦ مكية).

وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ. وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ

بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ. وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ. (سورة الرعد الآية ٣-٥ مدنية).

وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ. (سورة النحل الآية ٦٧ مكية).

أَفَرَأَيْتُم النَّارَ الَّتِي تُورُونَ. أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ. نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ. فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ. (سورة الواقعة ٧١ - ٧٣ مكية).

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ. (سورة النحل الآية ٨١ مكية).

أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا. ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا. (سورة الفرقان الآية ٤٥ - ٤٦ مكية).

وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا. أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا. وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا. مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ. (سورة النازعات الآية ٣١ - ٣٣ مكية).

وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ. ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ. (سورة النحل الآية ٦٨ - ٦٩ مكية).

زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ.

(سورة آل عمران الآية ١٤ مدنية)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ.

(سورة البقرة الآية ٢٦٧ مدنية)

ثالثا: النبات وضرب الأمثال:

١- في القرآن المكي:

وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ.

(سورة الأعراف الآية ٥٧ مكية)

وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ النُّشُورُ. (سورة فاطر الآية ٩ مكية)

وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ. قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ. الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ. أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ.

(سورة يس الآية ٧٨ - ٨١ مكية)

وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ. (سورة الأعراف الآية ٥٨ مكية)٠

إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ.

(سورة يونس الآية ٢٤ مكية)٠

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا. (سورة الكهف الآية ٤٥)٠

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ.

(سورة الزمر الآية ٢١ مكية)٠

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ. وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ.

(سورة ابراهيم الآية ٢٤ - ٢٧ مكية)٠

واضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَراً. وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً. وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً. وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنقَلَباً. قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً. لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً. وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَداً. فَعَسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً. أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْراً فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً. وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً. وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِراً. هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَخَيْرٌ عُقْباً. (سورة الكهف الآية ٣٢ - ٤٤ مكية).

٢- في القرآن المدني:

اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ. (سورة الحديد الآية ٢٠ مدنية).

مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ. (سورة البقرة الآية ٢٦١ مدنية).

وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ. أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ

وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ. (سورة البقرة الآية ٢٦٥ - ٢٦٦ مدنية).

مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ. (سورة آل عمران الآية ١١٧ مدنية).

اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ. (سورة النور الآية ٣٥ مدنية).

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا.

(سورة الفتح الآية ٢٩ مدنية).

رابعا: النبات فى الجنة والنار:

١- النبات فى الجنة:

الفواكه:

أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ. فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ. فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ.

(سورة الصافات الآية ٤١ - ٤٣ مكية).

مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ. (سورة ص الآية ٥١ مكية).

وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ. لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ.

(سورة الزخرف الآية ٧٢ - ٧٣ مكية)

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ. فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ. كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ. (سورة الطور الآية ١٧ - ١٩ مكية)

فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ. قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ. (سورة الحاقة الآية ٢٢ - ٢٣ مكية)

وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ. (سورة الواقعة الآية ٢٠ مكية)

وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ. فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ. ذَوَاتَا أَفْنَانٍ. فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ. فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ. فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ. فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ. فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ. مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ. فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ. (سورة الرحمن الآية ٤٦ - ٥٥ مدنية)

وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ. فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ. مُدْهَامَّتَانِ. فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ. فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ. فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ. فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ. فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ. (سورة الرحمن الآية ٦٢ - ٦٩ مدنية)

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا. حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا. (سورة النبأ الآية ٣١ - ٣٢ مكية)

السدر والطلح:

وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ. فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ. وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ.

(سورة الواقعة الآية ٢٧ - ٢٩ مكية)

الظل فى الجنة:

إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ. هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ.

(سورة يس الآي ة ٥٥ - ٥٦ مكية)

٢- النبات فى النار:

الزقوم:

ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ. لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ. فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ. فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ. فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ. هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ.

(سورة الواقعة الآية ٥١ - ٥٦ مكية)

وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا. (سورة الإسراء الآية ٦٠ مكية)

أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ. إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ. إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ. طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ. فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ. ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ. ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ. (سورة الصافات الآية ٦٣ - ٦٩ مكية)

إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ. طَعَامُ الْأَثِيمِ. كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ. كَغَلْيِ الْحَمِيمِ.

(سورة الدخان الآية ٤٣ - ٤٥ مكية)

الضريع:

لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ. لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ. اسورة الغاشية الآية ٦-٧ مكية)•

خامسا: النبات فى القصص القرآنى:

١- فى قصة أدم عليه السلام:

وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ. فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ. وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ. فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ. قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ. قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ.

اسورة الاعراف الآية ١٩ - ٢٤ مكية)•

فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى. فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى.

اسورة طه الآية ١٢٠ - ١٢١ مكية)•

وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ. فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ. فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ. قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. اسورة البقرة الآية ٣٥ - ٣٨ مدنية)•

٢- فى قصة موسى:

وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ. وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ.

(سورة الأعراف الآية ١٣٠ مكية)•

وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَامُوسَى. قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى. (سورة طه الآية ١٧ - ١٨ مكية)•

الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى. كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَىٰ.

(سورة طه الآية ٥٣ - ٥٤ مكية)•

كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ. وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ.

(سورة الدخان الآية ٢٥ - ٢٧ مكية)•

وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ. (سورة البقرة الآية ٦١ مدنية)•

٣- مريم والنخلة:

فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا. فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَالَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا. فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا. وَهُزِّي

إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا. فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا. (سورة مريم الآية ٢٢-٢٦ مكية).

فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ. (سورة آل عمران الآية ٣٧ مدنية).

٤- يوسف وتأويل الرؤيا:

وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ. (سورة يوسف الآية ٤٣ مكية).

يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ. قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ. ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ. ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ. (سورة يوسف الآية ٤٦-٤٩ مكية).

٥- يونس وشجرة اليقطين:

وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ. فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ. فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ. فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ. لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ. فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ. وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ. وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ. فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ. (سورة الصافات الآية ١٣٩-١٤٨ مكية)

٦- إبراهيم والدعاء لمكة:

رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ.

(سورة ابراهيم الآية ٣٧ مكية).

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ.

(سورة البقرة الآية ١٢٦ مدنية).

٧- النبات فى سيرة محمد صلى الله عليه وسلم:

وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا. أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا. (سورة الإسراء الآية ٩٠-٩١ مكية).

وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا. أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا. (سورة الفرقان الآية ٧-٨ مكية).

لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا. (سورة الفتح الآية ١٨ مدنية).

٨- قصة أصحاب الجنة:

إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ. وَلَا يَسْتَثْنُونَ. فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ. فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ. فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ. أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ. فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ. أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ.

وَغَدَوا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ. فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ. بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ. قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ. قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ. فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ. قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ. عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ. كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ. اسورة القلم الآية ١٧-٣٣ مكية).

٩- سبـــــأ وجناتهـــم:

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ. فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ. ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ. اسورة سبأ الآية ١٥-١٧ مكية).

سادسا: النـــــبات والتسبـــيح:

أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ. اسورة النحل الآية ٤٨ مكية).

تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا. اسورة الاسراء الآية ٤٤ مكية).

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ. اسورة الحج الآية ١٨ مدنية).

وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ. اسورة الرحمن الآية ٦ مدنية).

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. اسورة الحديد الآية ١ مدنية).

تمهيد
فى التفسير الموضوعى للقرآن الكريم

حظى النبات من بين الكائنات الحية بجانب عظيم من كتاب الله ، ولم لا والنبات كائن حى يخرج من الأرض،وينمو ويموت وتتوافر فيه بعض الصفات التى تتوافر فى الإنسان، بما فى ذلك حفاظه على نوعه مثل أى كائن حى؟

وقد عنى القرآن بالنبات عناية فائقة، فهو وسيلة لتشبيه الغائب غير المدرك بالمحسوس المدرك، وسبيل لتقريب البعيد إلى الأفهام. فحين يقول الله عز وجل"وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا"[1] . فإنه يكون قد شبه الحياة الدنيا وهى شيء معنوى بالنبات وهو شىء مادى محسوس.

من هنا كان انتباهى لهذا الموضوع موضوع "النبات فى القرآن الكريم" وهو موضوع لم يوله أحد من الدارسين قديما وحديثا إهتماما يليق به، حيث إن المفسرين تحدثوا عنه داخل إطار تفسيراتهم دون الالتفات إلى تجميع الآيات النباتية التى تحدث عنها القرآن الكريم، وتكوين موضوع واحد منها.

وكان هذا منهجى حيث قمت بتجميع الآيات القرآنية التى تتحدث عن النبات سواء بطريقة مباشرة أى يرد فيها لفظ النبات أو أحد أنواعه، أو بطريقة غير مباشرة أي تتحدث عن شىء يرجع فى أصله إلى النبات مثل الزكاة.

---

١) سورة الكهف : آية ٤٥.

فمنهجي إذن منهج يقوم على التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، مع جنوح إلى الصورة البيانية لأن النبات كما ذكرت أحد طرفي أروع التشبيهات في القرآن الكريم.

ومن المعروف أن هناك ثلاثة اتجاهات من التفسير هي:

التفسير التحليلي **التفسير الإجمالي** **التفسير الموضوعي**

والتفسير التحليلي هو التفسير "الذي يمضي المفسر من خلاله في تفسيره للقرآن مع النظم القرآني على ماهو موجود مرتب في المصحف محللا آية بعد آية وسورة بعد سورة، متتبعا معاني المفردات، ذاكرا ما تضمنته المعاني في جملها وما ترمي إليه في تراكيبها، منقبا عن المناسبات بين مفاصلها، مستعينا بذكر أسباب النزول، وما أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم أو نقل عن الصحابة والتابعين، وهذا اللون من التفسير يتفاوت فيه المفسرون بين الإطناب والإيجاز كذلك يتباينون من حيث المنهج[١].

أما التفسير الإجمالي "فهو التفسير الذي يعمد فيه الباحث المفسر إلى الآيات القرآنية، على ترتيب تلاوتها في المصحف، فيقصد إلى معاني جملها. ومن أمثلته في القديم تفسير الجلالين للسيوطي، وفي الحديث تفسير محمد فريد وجدي[٢].

فإذا ماجئنا إلى التفسير القائم عليه منهجي، قلت إنه هو "التفسير الذي يعمد فيه الباحث إلى الآيات القرآنية التي تتصل بموضوع واحد فيجمعها، ويقرؤها قراءة واعية، و يقسمها إن اقتضى الأمر تقسيما آخر داخليا بحسب الموضوع أيضا. من هنا كانت تسميته بالتفسير الموضوعي نسبة إلى وحدة الموضوع الذي يعالجه[٣].

---

١) د. أحمد العمري: "دراسات في التفسير الموضوعي"، الخانجي، ط١، ١٩٨٦، ص٣٨.

٢) المرجع السابق ص٤٢.

٣) المرجع السابق، ص ٤٣-٤٤.

وبما أننى بصدد بحث عن النبات فى القرآن فسوف أسير على نفس هذا اللون من التفسر طوال بحثى.

ولاشك أن هذا اللون من التفسير له جذور قديمة، قد تمتد إلى أيام الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة حيث كانوا يفسرون القرآن بالقرآن حتى إذا جاء ابن تيمية خلص إلى أن خير طرق التفسير هى أن يفسر القرآن بالقرآن، وطبق منهجه هذا على بعض سور القرآن مثل سورة النور[١]. وبعض سور قصار من جزء عم، وخص سورتى المعوذتين برسالة مستقلة، وأفرد كتابا لتفسير سورة الإخلاص. وتفسير كل آية من آيات هذه السور عنده يتحول إلى بحث فى مضمونها من خلال القرآن كله.

وفى العصر الحديث وبالتحديد فى نهاية القرن الماضى نجد عالما جليلا يضيف إضافة جديدة إلى هذا اللون من التفسير، وهذا العالم هو الإمام الشيخ محمد عبده. إذ قدم تفسيرا دقيقا لجزء عمَّ. تحدث عن وحدة الموضوع فى السورة مما جعله يدون كل الآيات التى تتصل بالموضوع الواحد أو معظمها من خلال تفسيره لأحد أجزاء القرآن الكريم[٢].

ولقد سار على نفس المنهج الأستاذ سيد قطب فى تفسره "فى ظلال القرآن" حيث قدم تفسيرا كاملا للقرآن الكريم. وقد ألف كتابين عظيمين يسيران فى نفس هذا الاتجاه هما "التصوير الفنى فى القرآن" و "مشاهد القيامة فى القرآن" وثلاثتها أى الظلال والتصوير والمشاهد تسير فى طريق واحدة. وان كان كتاب "المشاهد" هو الوحيد الذى يتصل اتصالامباشرا بالموضوع وذلك لأنه أخذ موضوعا واحدا من القرآن ودرسه دراسة وافية شاملة لكل جوانبه.

---

١) انظر هذا التفسير، ط مطبعة الأمانة، نشر دار الوعى، حلب ١٩٧٧.

٢) انظر هذا التفسير طبع دار ابن زيدون، بيروت، ط٢ ١٩٨٩م.

هـــذه هى أفضـــل طرق التفسير الموضوعى، وهى أن يركز الباحث على موضوع واحد فى القـــرآن كله. كأن يركز على قصة مثلا أو على الجنة أو النارأو على موضوع مثل موضوع النبـات ثم يدرسه دراســة دقيقة مستعينا بما كتبه السابقون عن الموضوع بعد جمع كل مايتعلق به.

وفى حقل الدراسات الجامعية اصطنع هذا المنهج نفسه الدكتور شوقى ضيف. إذ قدم تفسيرا لإحدى سور القرآن على هذا المنهج هى سورة الرحمن من خلال كتابه" سورة الرحمن وسور قصار"[١]. وقدم تفسيرا دقيقا وعرضا قيما لهذه السورة، جمع من خلاله كل الآيات التى تتحدث عن موضوعات هذه السورة حتى لكأننا نجد أنفسنا أما تفسير شامل لكل آي الذكر الحكيم.

وشبيه بهذه المحاولة كتاب الدكتورة عائشة عبد الرحمن بعنوان "التفسير البيانى للقرآن الكريم" ويفهم من العنوان أنه تفسير موضوعى بيانى، لكنها طبقته على بعض سور القرآن وليس على موضوع واحد فى القرآن كله.

وكما يفهم من مقدمة الكتاب فإنها تلقت هذا المنهج عن أستاذها أمين الخولى حيث تقول "والأصل فى منهج هذا التفسير كما تلقيته عن أستاذى، هو التناول الموضوعى الذى يفرغ لدراسة الموضوع الواحد فيه، فيجمع كل مافى القرآن منه، ويهتدى بمألوف استعماله للألفاظ والأساليب بعد تحديد الدلالة اللغوية لكل ذلك... وهومنهج يختلف عن الطريقة المعروفة فى تفسير القرآن سورة سورة، يؤخذ اللفظ أو الآية مقتطعا من ســـياقـه العام فى القرآن كله مما لاسبيل إلى الاهتداء معه إلى الدلالة القرآنية لألفاظه أو لمح خواطره الأسلوبية وخصائصه البيانية[٢].

(١) طبع دار المعارف، الطبعة الثانية.

(٢) د. بنت الشاطىء: التفسير البيانى، جـ١، ص ١٧دار المعارف ط٧.

ولم يكن التفسير البيانى للدكتورة عائشة هو كتابها الوحيد الذى درس القرآن دراسة بيانية ولكنها كتبت فى هذه الناحية كتابا أخر هو "الإعجاز البيانى للقرآن ومسائل ابن الأزرق؛ وقريب من منهج التفسير الموضوعى منهج الأستاذ الشعروای الذى طلع علينا بخواطره حول القرآن الكريم فى أوائل هذا العقد من هذا القرن. حيث فسر القرآن بالقرآن، ولم يكتف بذلك بل تطرق إلى تطبيق المعجزات القرآنية خاصة فى مجال الكونيات علي مخترعات العصر ومكتشفاته.

أما عن السبب الذى من أجله تكررت الآيات التى تتعلق بالموضوع الواحد فى القرآن فقد أخبرنا الله عز وجل به حين قال "وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ"[١].

ولقد دافع عن ذلك الخطابى حين قال " وأما قولهم لو كان نزول القرآن على سبيل التقسيم فيكون لكل نوع من أنواع علومه حيز وقبيل لكان أحسن نظما وأكثر فائدة و نفعا، فالجواب أنه إنما نزل القرآن على هذه الصفة من جمع أشياء مختلفة المعانى فى السورة الواحدة وفى الآية المجموعة القليلة العدد لتكون أكثر لفائدته وأعم لنفعه. ولو كان لكل باب منه قبيل ولكل معنى سورة مفردة لم تكثر عائدته ولكان الواحد من الكفار إذا سمع السورة منه لاتقوم عليه الحجة إلا فى النوع الواحد الذى تضمنته السورة الواحدة فقط. فكان اجتماع المعانى الكثيرة فى السورة الواحدة أوفر حظا وأجدى نفعا من التمييز والتفريد للمعنى الذى ذكرناه[٢].

إن تكرار الموضوعات فى القرآن من باب إعجاز القرآن الكريم ليؤكد للعرب المجادلين أنه من عند الله إذ سبق أن تحداهم أن يأتوا بمثله أو بعشر سور من مثله أو بسورة أو بآية فلم يستطيعوا، فهو يكرر لهم الموضوعات التى لايعلمونها لأنهم أيضا لن يستطيعوا أن يأتوا بموضوع منها رغم تكرارها فى القرآن الكريم.

---

١) القصص آية ٥١.

٢) إعجاز القرآن ، ص٥٤، دار المعارف بمصر،ط٤ ضمن ثلاث رسائل. تحقيق، د. محمد خلف الله أحمد، د. محمد زغلول سلام.

ومن خلال الإطلاع على بعض الدراسات التى فسرت القرآن تفسيرا موضوعيا أستطيع القول إن المفسر الذى يفسر القرآن تفسيرا موضوعيا ينهج أحد هذه المناهج:

(١) أن يفسر القرآن كله تفسيرا موضوعيا. وهذا المنهج على الرغم من قيمته لأنه سوف يفسر القرآن كله فإنه لن يخلو من حشو وتكرار لبعض الفقرات، وذلك لأن هناك موضوعات كثيرة فى القرآن مكررة مما يضطر المفسر إلى تكرار ماقاله فى أماكن متفرقة من تفسيره.

(٢) أن يجعل السورة القرآنية هى وحدته الموضوعية فينظر إليها نظرة شمول وإحاطة مهما تعددت موضوعاتها[١]. وتباينت مناسبات نزولها.

(٣) والمنهج الثالث هو المنهج التكاملى للموضوع الواحد من القرآن حيث تجمع الآيات القرآنية ذات الهدف المشترك ثم ترتب زمنيا حسب نزولها ما أمكن ذلك مع الوقوف على أسباب هذا النزول إن وجد ثم تناولها تناولا تحليليا بالتفسير والبيان مع الربط بين أولها وآخرها[٢].

ولكن ألم يكن البدء بتحديد معنى "النبات" فى المعاجم والتفاسير أفضل؟

أقول إننى لم أوثر تحديد معنى "نبت"معجميا وتفسيريا لأن حديثى لن يدور حول مايشتق من هذا اللفظ فقط، وكذلك لأن لفظ النبات تدخل تحته جميع أنواع النباتات الأخرى من زيتون ونخل ورمان وعنب... إلى غير هذه الأنواع المذكورة فى القرآن الكريم. وكذلك لأن النبات فى القرآن له مفهومات ودلالات كثيرة سوف نلاحظها ونحن نخوض غمار البحث. ذلك أننى أجد المفهوم و الدلالة يختلفان فى القرآن المكى عنهما فى القرآن المدنى، يختلفان

---

(١) د. أحمد العمرى ، المرجع السابق، ص٧٠.

(٢) المرجع السابق، ص ٧٢.

في الجنة عنهما في النار،يختلفان في الأمثال عنهما في القصة... إن منهج هذا البحث سوف يكون من خلال طريقين يفضي كلاهما إلى الأخر.

الطريق الأول تمثل في ابراز دور النبات بالنسبة لحياة كل كائن حي ومماته، ولقد ضم هذا بطبيعة الحال حديثا عن الماء وضرورته للحياة، وحديثا عن دورالنبات في الجنة والنار، فضلا عن دوره في القصة القرآنية.

الطريق الثاني يتمثل في اتخاذ الآيات النباتية طرفا ثانيا فيما يسوق القرآن من الأمثال:

وهكذا دار البحث على سبعة فصول هي:

الفصل الأول عن "الظواهر الكونية وعلاقتها بالنبات" من سماء وما تحوى، وأرض وماتضم، بما في ذلك الإنسان المخلوق الأول الذي تعود عليه الفائدة من ذلك كله.

والفصل الثاني بعنوان "الماء والنبات" لأن النبات أحد الكائنات الحية التي خلقت من الماء، وتقوم حياتها على الماء، مصداقا لقوله تعالى "وَجَعَلنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ"[1].

أما الفصل الثالث فهو بعنوان " النبات بين الحياة والموت" ففي وجود النبات حياة للإنسان بل لكل كائن حي، وفي عدم وجوده موت له.

وهذا الفصل قُسِّم قسمين:

الأول: النبات وعلاقته بالحياة والموت في القرآن المكي.

الثاني: النبات وعلاقته بالحياة والموت في القرآن المدني.

---

(١) من الآية ٣٠ سورة الأنبياء.

وهذا لأن الحياة فى مكة اختلفت عنها فى المدينة، لذلك فإن ما وَجه لأهل مكة من حديث عن النبات يختلف عما وَجه لأهل المدينة.

وعن الصورة التى رسمها القرآن للجنة والنار. ومن الطبيعى أن يكون للنبات دور فيها، دار الفصل الرابع من البحث، وعنوانه "النبات بين الجنة والنار".

وقَسّم هذا الفصل قسمين:

الأول: النبات فى الجنة.

الثانى: النبات فى النار.

أما الفصل الخامس: فهو بعنوان "النبات وضرب الأمثال" وهذا الفصل ظهرت فيه الصورة البيانية للنبات عن غيره من الفصول، لأن النبات كان أحد أطراف الصورة، أي مشبها به.

وجعلت هذا الفصل أيضا قسمين:

الأول: النبات وضرب الأمثال فى القرآن المكى.

الثانى: النبات وضرب الأمثال فى القرآن المدنى.

ثم جاء الفصل السادس وكان بعنوان "النبات فى القصص القرآنى" إذ ظهر للنبات دور فى بعض قصص القرآن وهى: قصة آدم والشجرة - قصة موسى مع فرعون ثم مع قومه، قصة مريم والنخلة- قصة يوسف وسنابل فرعون - قصة يونس واليقطينة - إبراهيم والدعاء لمكة بالرزق من الثمر - سيرة محمد صلى الله عليه وسلم فى القرآن - قصة أصحاب الجنة فى سورة القلم - سبأ وجناتهم.

وكان الفصل السابع خاتمة الفصول، وعنوانه "النبات والتسبيح" من منطلق أن كل شىء يسبح بحمد الله ، لقوله تعالى "وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ"[1].

(١) من الآية ٤٥ الإسراء.

ثم جاءت خاتمة البحث توضح أهم النتائج التى قدمها، والجديد الذى أضافه للمكتبة العربية والإسلامية.

وهدفى من ذلك كله هو التمرس بتحليل النصوص الأدبية، والوقوف على رموزها ودلالاتها لأن تحليل النص الأدبى من المواد القيمة التى درستها فى هذا المدرسة العريقة "مدرسة عين شمس" على يد نخبة من الأساتذة النقاد الكبار الذين سعدنى أن أتوجه لهم جميعا بخالص شكرى وعرفانى.

وأتوجه بالشكر الخاص لصاحب هذه الفكرة القيمة،الأستاذ الدكتور/ عاطف جودة نصر، الذى تعلمت على يديه كيفية تحليل عمل أدبى فى السنة التمهيدية للماجستير خاصة من خلال كتابيه "الخيال"ـ"النص الشعرى" فله منى خالص شكرى وتقديرى.

وبعد فهذه محاولة بسيطة، لا أرجو من ورائها إلا ثواب العمل وبعض إعجاب القارئين، والله الموفق والهادى إلى الرشاد.

الفصل الأول
الظواهر الكونية وعلاقتها بالنبات

آيات للكمبيوتر

الفصل الأول

الظواهر الكونية وعلاقتها بالنبات

يقتضى منى الحديث عن النبات بوصفه كائنا حيا يتأثر بالبيئة ويؤثر فيها البدء بحديث عن بعض الظواهر الكونية لنعرف العلاقة بينهما. وذلك لأن الكون هو "مايعنى مجموع جزئيات العالم من سماء وأرض و ما أودع الله تعالى فى كل منهما على السواء[1].أو هو مكان ومكين، فالمكان هو السماء والأرض والمكين هو الإنسان والمكان مخلوق لله والمكين مخلوق لله.

إن حقيقة الكون أنه مؤلف من شيئين هما السماء والأض، ذكر وأنثى. فالسماء بما فيها من كواكب تمنح الأرض الحياة بما تدره عليها من أمطار وأنوار تيسر للمخلوق على ظهر الأرض سبل الحياة. فكل كائن حى وليد هذين الأبوين المتصلين اتصالا شرعه الله لهما منذ خلقهما إلى أن يأذن بزوالهما.

والنبات من بين هذه الكائنات التى نتجت عن علاقة السماء بالأرض، وإن كان يعتبرمن أهمها لأن عليه حياة الكائنات.لذلك بدأ الله تعالى بخلق السماء والأرض وتمهيدهما وتذليلهما لكى تعيش مخلوقاته فيما بعد. وفى ذلك يقول جل شأنه.

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَامِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ[2]: ويقول سبحانه: الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَابَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا[3].

---

(١) مظاهر كونية فى معالم قرآنية ص ٧، د. محمد محمود عبد الله مؤسسة الخليج ط١. ١٩٩٢.

(٢) يونس ٣.

(٣) الفرقان ٥٩.

وقد يسأل سائل هل خلقت السماء أولا أم الأرض؟ لكن الحق تبارك وتعالى يجيبنا عن هذا التساؤل بأنهما خلقتا معا كتلة واحدة ملتصقة بعضها ببعض ثم تلا ذلك مرحلة الفتق وهو الفصل لهما: أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنٰهُمَا[١].

ثم تلت هذه المرحلة مرحلة أخرى متمثلة فى فتق السموات إلى سبع والأرض إلى سبع كذلك: اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ[٢].

وفى فصل السماء عن الأرض تمهيد لإقامة حياة على ظهر الأرض ، حيث بدأت السماء تمطر وبدأت الأرض تنبت بقدرة الله لتعلن صلاحيتها للحياة.

ولم لا والأرض هى الكوكب الوحيد الذى جعله الله تعالى صالحا للحياة؟ "فقربها من الشمس معتدل،والحرارة التى تصل إليها معتدلة، ودورتها اليومية معتدلة وكافية لإحداث ليل ونهار صالحين للسعى والراحة، ودورتها السنوية معتدلة وكافية لاحداث فصول أربعة صالحة لارواء الزروع وانتاجها فضلا عن أنها تمتاز بالماء والهواء الصالحين للحياة[٣]... وكلها مقومات من أجـــل خليفة اللـــه فى الأرض ، الإنسان الذى كرمه الله وفضله على سائر المخلوقات.

فالحديث عن السماء والأرض حديث عن متلازمين للدلالة على أنهما مشتركتان فى إقامة الحياة وسيرها بما يلائم المخلوقات. يقول تعالى:اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ[٤]

(١) الأنبياء ٣٠.
(٢) الطلاق ١٢.
(٣) مظاهر كونية فى معالم قرآنية ص ٢٤.
(٤) غافر ٦٥.

ويقول جل شأنه: وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ. وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ[١] ويقول: وَجَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا[٢]. حيث جعل الله الأرض للإنسان مستقرا بساطا مهادا يعيش عليها ويتصرف فيها ويمشي في مناكبها وأرساها بالجبال لئلا تميدبهم وجعل السماء سقفا محفوظا[٣].

والأرض هى المكان الذى يعيش فيه الناس ولايتسطيع أحد أن يدعى أنه خلق الأرض وأوجدها. وقوله "فراشا" توحى بأنه أعد الأرض إعدادا مريحا للبشر، و "المهاد الفراش وقد جعل الله الأرض موطنا للناس والدواب يقيمون عليها فهى فراش لهم[٤] ونحن نتوارث الأرض جيلا بعد جيل وهى تصلح لحياتنا جميعا، ومنذ أن خلقت الأرض إلى يوم القيامة ستظل فراشا للإنسان.

فوصف الأرض بهذه الأوصاف اللينة رمز لامتداد حياة يسيرة لبنى البشر المخلوق الأول المكلف بعبادة الله تعالى.

وهاتان هما الأرض والسماء كأنهما "عاقلتان يوجه إليهما الخطاب فتسرعان بالجواب "أتينا طائعين" والخيال شاخص إلى الأرض والسماء تدعيان وتجيبان الدعاء[٥]. يقول تعالى: ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ[٦]

---

(١) الذاريات ٤٧-٤٨.

(٢) من الآية ١٠ سورة الزخرف.

(٣) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، جـ٤، ص ٨٦.

(٤) تفسير جزء عم: محمد عبده، ص ٧، دار ابن زيدون - بيروت، ط٢.

(٥) سيد قطب: التصوير الفنى فى القرآن، ص٦٤ دار المعارف.

(٦) فصلت ١١.

ومعنى أمر السماء والأرض بالإتيان وامتثالهما أنه أراد تكوينهما فلم يمتنعا عليه ووجدتا كما أرادهما وكانتا فى ذلك كالمأمور المطيع. فهو من المجاز الذى يسمى التمثيل. ويجوزأن يكون تخييلا ويبنى الأمر فيه على أن الله تعالى كلم السماء والأرض وقال لهما ائتيا شئتما ذلك أو أبيتماه فقالتا أتينا على الطوع لاعلى الكره. والغرض تصوير أثر قدرته فى المقدورات من غير أن يحقق شىء من الخطاب والجواب ونحوه... فالمعنى ائتيا على ماينبغى أن تأتيا عليه من الشكل والوصف، ائت يا أرض مدحوة قرارا أو مهادا لأهلك، وائت ياسماء مقببة سقفا لهم[١].

إنها إيماءة عجيبة إلى انقياد هذا الكون للناموس وإلى اتصال حقيقته بخالقه اتصال الطاعة والاستسلام لكلمته. وياللرضا، وياللراحة ويا للطمأنينة التى تملأ قلوبنا يومئذ فى رحلتنا القصيرة مع هذا الكوكب الطائع الملبى السائر معنا فى رحلتنا الكبرى إلى ربه فى نهاية المطاف[٢].

ولما كانتا أى السماء والأرض على هذه الصفة من الأهمية لم يكن غريبا أن يقسم بهما المولى عز وجل، حيث قال: وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا. وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا[٣] إذ أقسم تعالى بالسماء ومأأودع فيها من نظام عبر عنه بالبناء. إذ رفعها على قواعد منها الجاذبية المعروفة بالمجموعة الشمسية، ووراء هذه القاعدة قواعد أخرى كثيرة لانعرفها ولا يحيط بها علمنا. وبالمثل الأرض فقد طحاها الله أومهدها، ووطأها للإنسان وكأنها بيته ، بل كأنها نفس فراشه الذى يضطجع عليه ويجد فيه راحته... وقدأمده الله فى الأرض بالمياه والينابيع والأنهار... كما أمده بالحيوانات والطيور والنبات والأشجار والزروع[٤].

---

(١) الزمخشرى: الكشاف جـ٣ ، ص٤٤٥، دار الفكر العربى.

(٢) سيد قطب: "فى ظلال القرآن" جـ٢٤، ص ٣١١٥، دار الشروق.

(٣) الشمس ٥-٦.

(٤) د. شوقى ضيف: "تفسير سورة الرحمن وسورة قصار"، ص٣٢٩، دار المعارف، وانظر محمد عبده ،ص١١٠.

إن هذه الآيات تساق لمن شاء أن يتصور صعوبة بناء سماء كهذه، وقد ألفوا فى المبنى أن يكون بمنال اليد وأن يشد بما يمسكه ويرفعه فلا ينقض، وأين ذلك كله من تلك السماء فى ارتفاعها الشاهق الذي لامجال لبلوغه وفى قيامها على غير عمد ترى أو قوائم تحس[١].

والبناء يفيد المتانة والتماسك أي أن السماء وهى فوقنا لانرى شيئا يحملها حتى لاتسقط علينا، إنها سقف متماسك متين، يؤكد الحق هذا المعنى بقوله: وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ"[٢].

والهدف من هذه الآيات أن نطمئن ونحن نعيش على الأرض، أن السماء لن تتساقط علينا. ولذلك كان خلق السموات والأرض أكبر من خلق الإنسان ، لأن الإنسان خلق من الأرض وبما فيها عاش، فالأصل أن الإنسان ابن الأرض، واقتياته منها، وحياته باقية عليها. ومن المعقول أن الله تعالى قد خلق مايخلق منه الإنسان قبل أن يخلق الإنسان ، وحتى يعيش ، أمده الله بجنس ماخلق منه.

وبمثل ما طمأن الله البشر من أن السماء محفوظة لن تقع على الأرض طمأنهم كذلك أن الأرض مستقرة متماسكة لن يصيبها اهتزاز أو اضطراب لأنه تعالى خلقها وأرساها بالجبال الرواسى، فالجبال للأرض كالأوتاد للخيمة، ولولاها لتحركت الأرض وتمايلت بمن عليها، يقول تعالى:أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَاداً وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً[٣]. ويقول: "وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ[٤].

(١) د. عائشة عبد الرحمن:التفسير البيانى"، جـ١، ص١٥٠، دار المعارف، ط٧.
(٢) الحج ٦٥.
(٣) النبأ ٦-٧.
(٤) النحل ١٦.

لقد ذكرت الجبال فى القرآن الكريم فى أماكن متفرقة، لكن ذكرها، كان معناه استعدادا للنشأة الثانية، وماسيحدث للعالم من خلق جديد لايعلم كنهه إلا الله. مثل قوله تعالى "وَإِذَا الجِبَالُ سُيِّرَتْ[١] وقوله "وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً[٢] إلى غير هذا من الآيات المذكور فيها الجبال ذكرا يدل على قيام الساعة ، ولقاء الناس بربهم وتغير حال الأرض والسماء. ولكن فى مقابل ذلك نجد حملا آخر لوظيفة الجبال فى القرآن حيث استخدمت لتثبيت الأرض وارسائها بمن عليها حتى لاتهتز أو تضطرب.

إن السماء والأرض مشهدان من مشاهد الطبيعة الخالدة الدالة على قدرة الله تعالى، إنهما تمثلان "لوحة طبيعية منسقة يوجه إليها البصر لينقل مايراه إلى النفس ليقع فى النفس ما يقع من الأثر لتؤمن بقدرة الله الذى خلقهما. وهما لوحتان معروضتان فى كل حين، لكن الإنسان يقرأ هذه الآيات فيلتفت إليها كأنما تعرض أول مرة فى هذا الوجود. وتلك طريقة القرآن فى كل مايوجه إليه النظر من مشاهد الطبيعة[٣].

هاتان هما الأرض والسماء الأبوان الأصليان لكل كائن حى على الأرض.آثرت البدء بهما لأنهما أصل كل نبات بما فى ذلك الإنسان. "وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِنَ الأَرْضِ نَبَاتًا. ثُمَّ يُعِيدُكُم فِيهَا وَيُخْرِجُكُم إِخْرَاجًا"[٤] وهما كذلك محط كل إنسان ومقره.

لقد خلق الله تعالى السماء والأرض وخلق منهما الإنسان، وخلق له من نفس جنسه الذي خلق منه- الطين-كل كائن حى مسخر لخدمته، وذلك لاستمرار الحياة. وهى نعم أمد الله بها الإنسان فتظل طوال فترة الحياة، وعند الموت تنتهى علاقته بنعم الحياة الدنيا.

---

(١) التكوير ٣

(٢) الحاقة ١٤.

(٣) التصوير الفنى فى القرآن، ص ٥٨.

(٤) سورة نوح ١٧-١٨.

لقد ترتب على خلق السماء والأرض جوهر نظام الحياة، إذا أصبح هناك ليل ونهار، وأصبح هناك شمس وقمر يجريان بحساب مقد ردقيق ونظام محكم دال على قدرة الله وأنه أودع الكواكب والأفلاك تدبيرا متقنا يقوم على قوانين ثابتة.

"إن فى مسيرة الشمس والقمر التى لاتخطىء نهارا أو ليلا ما يدل على أن وراءهما قوة عليا تسيطر على الكوكبين وتهديهما فى مسيرتهما، إذ يسيران دون اختلال أو اضطراب.. ويلفت القرآن مرارا إلى أن الكون جميعه مسخر للانسان ينتفع به، فهو الكائن الرفيع الذى يتجلى فيه الله بجميع صفاته، والذى جعله خليفة له فى أرضه. فإذا هو مشدود إلى التراب ونظره معلق بأنوار السماء، وفى مقدمتها أنوار الشمس والقمر المسخرة له ولمنافعه. وأن كلامن الكوكبين يسير إلى مستقر مقدر لايحيد عنه يمينا ولايسارا... أما الشمس فمعها الفصول التى تنتظم بها حياة الإنسان والحيوان والزروع ومعها النهار الذى يضرب فيه الإنسان الأرض باحثا عن وجوه كسبه ومعاشه. وأما القمر فمعه الأهلة ومعه منازله التى يسير فيها على مدار كل شهر. والغاية العظمى من زيادة القمر ونقصانه واكتماله واحتجابه وتنقله فى منازله معرفة المواقيت فى العبادات وفى المعاملات وغيرها من مصالح الإنسان.. ومع القمر الليل والنوم الذى يستريح فيه الناس من أعباء العمل وأثقاله فى النهار[1].

والله جل شأنه يمتن على الإنسان بأن جعل له الليل كاللباس يدخل فيه فيسكن، ويخلد إلى النوم والراحة حتى إذا لاحت تباشير الصباح سعى فى الأرض لكسب قوته ومعاشه. وبذلك ينظم هذان الكوكبان حياة الانسان، ويوزعانها على نهار عامل نشيط وليل ساكن مريح. وهى نعمة ينبغى على الإنسان أن يقدرها، وهو لا يقدرها إلا إذا تصورالدنيا لايعمرها إلا كوكب واحد من الكوكبين. فكانت ليلا خالصا أو نهارا خالصا. إذن لاضطربت

(١) تفسير سورة الرحمن وسور قصار، ص ٥٠ بتصرف.

شئون الإنسان وما استطاع أن يعيش ولا أن يرقى منازل الرقى التى حققها له انقسام اليوم الى نهار وليل[١].

يقول تعالى:هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ[٢]. ويقول جل شأنه: وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ. وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ[٣].ويقول:"فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا[٤]. ويقول:"الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ[٥].

فالحق تبارك وتعالى يخبر عما خلق من الآيات الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه، وأنه جعل الشعاع الصادر عن جرم الشمس ضياء وجعل شعاع القمر نورا، هذا فنّ وهذا فنّ آخر ففاوت بينهما لئلا يشتبها، وجعل سلطان الشمس بالنهار، وجعل سلطان القمر بالليل، وقدره منازل، فأول مايبدو صغيرا ثم يتزايد نوره وجرمه حتى يكمل ثم يشرع فى النقص حتى يرجع إلى حالته الأولى فى تمام الشهر[٦].

وانفلاق الإصباح من الظلام حركة تشبه فى شكلها انفلاق الحبة والنواة، وانبثاق النور فى تلك الحركة كانبثاق البرعم فى هذه الحركة... وبينهما من مشابه الحركة والحيوية والبهاء والجمال سمات مشتركة، ملحوظة فى التعبير عن الحقائق المشتركة فى طبيعتهما وحقيقتهما كذلك.

---

(١) المرجع السابق، ص ٥١.
(٢) يونس ٦.
(٣) ابراهيم ٣٣-٣٤.
(٤) الأنعام ٩٦.
(٥) الرحمن ٥
(٦) ابن كثير جـ٢ ص ٤١٥.

وبين إنفـــلاق الحـــب والنوى وانفلاق الإصباح وسكون الليل صلة أخرى هى أن الإصباح والإمســـاء والحركـــة والســـكون فى هذا الكون أو فى هذه الأرض ذو علاقة مباشرة بالنبات والحياة.

إن كون هذه الأرض تدور دورتها هذه أمام الشمس، وكون القمر بهذا الحجم وبهذا البعد من الأرض، وكون الشمس كذلك، وهذه الدرجة من الحرارة هى تقديرات من العزيز ولولا هذه التقديرات ماانبثقت الحياة فى الأرض على هذا النحو، ولما انبثق النبت والشجر من الحب والنوى[1].

إننا لانكون بمنأى عن النبات ونحن نتحدث عن هذه الظواهر الكونية، فالقرآن رشح النبات لتوضيح الصورة وتقريبها للإنسان خاصة فى مجال الكونيات. ولنتأمل هذه الآية التى شبه الله تعالى فيها القمر بالعرجون القديم أو العزق فى النخلة. يقول تعالى "وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُظْلِمُونَ. وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ. وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ. لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ"[2].

إن منازل القمر ثمانية وعشرون منزلا ينزل القمر كل ليلة فى واحد منها لايتخطاه ولا يتقاصر عنه من ليلة المستهل إلى الثانية والعشرين ثم يستتر ليلتين أو ليلة إذا نقص الشهر، وهذه المنازل هى مواقع النجوم التى نسبت إليها العرب الأنواء المستمرة فإذا كان فى آخر منازله دق واستقوس وعاد كالعرجون القديم وهو عود العذق مابين شماريخه إلى منبته من النخلة، والقديم المحول، وإذا قدم دق وانحنى واصفر فشبه به من ثلاثة أوجـــه. وبذلك لاينبغى للشمس أن تجتمع معه فى وقت واحد وتداخله فى سلطانه فتطمس نوره. ولايســـبق

---

(١) فى ظلال القرآن ، جـ٧، ص ١١٥٧

(٢) يس ٣٧-٤٠.

الليل النهار بل هما متعاقبان بمقتضى تدبيره تعالى. وجعلت الشمس غير مدركة، والقمر غير سابق، لأن الشمس بطيئة السير تقطع فلكها فى سنة والقمر يقطع فلكه فى شهر فكانت الشمس لبطئها جديرة بأن توصف بالإدراك والقمر لسرعته جديرا بأن يوصف بالسبق[١].

فصورة للهلال فى الآية القرآنية تضعنا فى مملكة النبات مباشرة إذ تواجهنا بعراجين النخل وأقنائها عندما تذوى وتصفر وتتقوس[٢].

ولعل أروع مالفت الإنسان على مر العصور موكب الشمس وهى تبدو من الأفق فى مطلع النهار وتمضى فى الصعود إلى وسط السماء، وكلما تعالت ازدادت حرارتها حتى إذا كان الضحى زاغ البصر من كثرة ماترسل من أضواء تحيط بكل شىء ، كأنما تريد أن تشعل الحياة إشعالا لايخمد فى كل ماتقع عليه. وكأنما ألهم أجدادنا الأولون مالها من تأثير فى حياتهم، ومن المؤكد أنهم لم يكونوا يعرفون عنها مانعرفه الآن من أنها مصدر الحياة فى الأرض وكل ظواهرها الطبيعية بفضل طاقاتها الحرارية التى تبعث الحياة فى كل الكائنات الأرضية، والتى تعد القوى المائية والأمطار والأنهار والتى أتاحت وتتيح لنا جميع موارد الطاقة. وكل ذلك لم يكن يعرفه الأجداد المتعمقون فى القدم ولكنهم أحسوا إحساسا دقيقا بخطرها، وراعهم موكبها اليومى وأنه لولا بزوغها كل صباح لأظلمت الدنيا، كأنما شعروا أنها صاحبة السلطان الأول فى الوجود.. لذلك قدسوها وعبدوها وجعلوها أكبرمعبوداتهم لا فى مصر وحدها بل فى جزيرة العرب وغيرها،إنها آية كبرى من آيات الكون هى وضياؤها الذى يبلغ الأوج منذ الضحى وأنواره القوية.

أما القمر فهو الكوكب الثانى الذى لفت الإنسان منذ القدم، إذ رآه حين يرخى الظلام سدوله على التلال والوديان والجبال والأشجار والينابيع، والأبار والأنهار وجميع المسالك

(١) الكشاف جـ٣، ص ٣٢٣.

(٢) د. عاطف جودة نصر، الخيال، ص ٢١٢، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٨٤م.

والدروب يرسل نوره على جميع البقاع، فإذا الحياة التى انطفأت فى كل مكان بانطفاء الشمس قد استيقظت من سباتها ولم يعد يرين عليها الصمت والسكون والركود، ولم يعد الإنسان أسير الظلام ولاعاد يلابسه ويلابس كل ما حوله فقد طرده نور القمر. وهو نور لطيف لاتمازجه حرارة كحرارة الشمس، وكأنه رحمة كبرى تبزغ فى السماء لانقاذ الإنسان من وحشة الظلام ومخاوفه، ولذلك طالما ناغاه الإنسان على نحو ماياغى الطفل المصباح لما له من أثر فى تحريك نفسه وبعث خواطره فكان طبيعيا لأجدادنا الأولين فى بدء الحياة الإنسانية أن يقدسوه ويعبدوه كما قدسوا الشمس وعبدوها، إنه وحده الذى يعتلى عرش الليل كما تعتلى الشمس عرش النهار[١].

وكما جعل فى الليل موتا، جعل فى النهارالمتقلب والمعاش، حيث ينطلق الناس إلى مايفيدهم فى شأن دنياهم.وفيه ايحاء بالعمل وحث عليه وإغراء به، لأن النهار الذى هو جزء من الزمن يصبح نفسه معاش الخلائق. فمن أراد أن يعيش فلينشط فيه ومن أراد أن ينعم فليزدد نشاطه، ولتتواصل حركته فى تلك الرقعة الفسيحة من النهار. يقول تعالى "وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِن رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً[٢].

ويقول جل شأنه: وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا[٣].

ويقول: اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ[٤].

---

(١) د. شوقى ضيف، المرجع السابق،، ص ٣٢١، ومابعدها بتصرف.

(٢) الاسراء ١٢.

(٣) الفرقان ٤٧.

(٤) غافر ٦١.

ويقول : وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا.وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا. وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا[١]

فالضديات لابد أن تكون متساوية فى ميزان التقدير الإلهى، "وهذا مايسمى بنظام حفظ الكون بدقة. وآيات التنزيل تزخر بالمقارنات بين الضديات مثل قوله تعالى "واختلاف الليل والنهار" أى تعاقبهما الأول بالظلمة، والثانى بالضياء، وهكذا ترى البياض والسواد، والظلمات والنور ، والظل والحرور بنسب متساوية ومقادير محكمة إلى آخر ماجاء فى التنزيل من الآيات الدالة على عظمة الخالق ومدى حكمته فى خلقه ورعايته وعنايته بماخلق[٢].

ومشهد اختلاف الليل والنهار لوفتحنا له بصائرنا وقلوبنا لوتلقيناه كمشهد جديد تتفتح عليه العيون أول مرة لارتعشت له رؤانا ،ولاهتزت له مشاعرنا..

وقيمة كل من الليل والنهار لاتتجلى للإنسان إلا إذا سارت الحياة على أحدهما فقط دون الآخر. أي كانت ليلا دائما أو نهارا دائما. فلو كانت كذلك لفسد جهاز هذا الإنسان، فضلا عن فساد ما حوله كله، وتعذر حياته ونشاطه وانتاجه . يقول تعالى: قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ. وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ[٣].

إنه الكون بتمامه وكل مافيه من كائنات خيرة وشريرة يتألف منها بنيانه وكلياته وجزئياته، ومايداخلها من كوامن الحكمة الإلهية ودفائنها، مما يملأ النفوس بالعجب ومما يدفع

(١) النبأ ٩-١١.
(٢) مظاهر كونية فى معالم قرآنية، ص ١١٥.
(٣) القصص ٧٣ -٧٤.

العقول إلى الإيمان بإله قائم على هذا الوجود يدبره ويحكم تدبيره، إنه رب يربى مايخلقه وينميه ويتعهده فى أطواره حتى يصل إلى الغاية المرتقبة[١].

هذا ولم تترك السماء دون جمال وبهاء، ولكن الحق تبارك اسمه زينها وجملها لكى تبدو فى أجمل صورة لعين المتأمل. "ونظرة إلى السماء كافية لرؤية هذه الزينة، ولادراك أن الجمال عنصر مقصود فى بناء هذا الكون، وأن صنعة الصانع فيه بديعة التكوين جميلة التنسيق، وأن الجمال فيه فطرة عميقة، لاعرض سطحى وأن تصميمه قائم على جمال التكوين، كما هو قائم على كمال الوظيفة سواء بسواء. فكل شيء فيه بقدر وكل شيء فيه يؤدى وظيفته بدقة وهو فى مجموعه جميل[٢].

يقول تعالى واصفا السماء بالبهاء والجمال: إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ. وَحِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ[٣].

ويقول جل شأنه: وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ[٤].

والمقصود بالسماء هنا السماء الظاهرة لاعيننا التى ترى فيها الكواكب والنجوم. وسميت الكواكب مصابيح لأنها تضيء الليل، ويدخل فيها القمر لأنه أعظم الكواكب إضاءة فى الليل وجنح الظلام.

---

(١) تفسير سورة الرحمن وسورة قصار ص ١٩.

(٢) فى ظلال القرآن جـ٢٣، ص ٢٩٨٤

(٣) الصافات ٧-٨.

(٤) الملك ٥.

وبالإضافة إلى الزينة والجمال أضاف تعالى إلى هذه الكواكب منافع أخر، حيث جعلها رجوما للشياطين. أي "الأعداء الذين يخرجون الناس من النور إلى الظلمات، وكذلك يهتدى بها فى ظلمات البر والبحر[١].

إن السماء وتناثر الكواكب فيها "لأجمل مشهد تقع عليه العين ولاتمل طول النظر إليه. وكل نجمة توصوص بضوئها وكل كوكب يوصوص بنوره وكأنه عين محبة تخالسك النظر، فإذا أنت حدقت فيها أغمضت وتوارت، وإذا أنت التفت عنها أبرقت ولمعت. وتتبعَ مواقعها وتغير منازلها ليلة بعد ليلة وآنا بعد آنٍ متعةً نفسية لاتملها النفس أبدا[٢].

ولكن لما كان الكون بهذا الشكل المتكامل ، من المستفيد من ذلك كله؟

إن الكون ملىء بالكائنات الحية التى تعود عليها الفائدة منه، ولكن هذه الكائنات وراءها غاية من خلقها غاية تتجلى فى أنها مسخرة للإنسان الظاهرة الأولى فى الكون. فكل شىء فى الكون تعود فائدته على الإنسان الذى جعله الله خليفته فى أرضه وكرمه وفضله على سائر المخلوقات، وتشاء الحكمة العليا أن يتغذى هذا المخلوق على جنس ماخلق منه. فالنبات ينبت من الأرض بعد نزول الماء عليها، والكائنات الحية تتغذى على هذا النبات. فكل كائن حى مرده إلى الأرض التى خلق منها الإنسان. "فالعلاقة بين الأرض والإنسان، ترتقى إلى النسب، أي نسبة الجزء إلى الكل، فهى للإنسان بمثابة الأم، إذ منها جمع الحق تعالى بنية أجزائه ومكونات أعضائه، وعليها سعيه وحياته، وفيها نومه وبياته، وإليها عودته بعد مماته[٣].

يقول تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[٤].

---

(١) الكشاف جـ٤، ص ١٣٥.

(٢) فى ظلال القرآن جـ٢٣، ص٢٩٨٤.

(٣) مظاهر كونية ، ص٣٥.

(٤) هود ٦٢.

ويقول جل شأنه: وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ[١].

ويقول: وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ[٢].

ويقول تبارك اسمه: إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ[٣].

فاشتقاق آدم من الأدمة وهى أديم الأرض[٤]. والصلصال هو الطين اليابس الذى يصلصل وهو غير مطبوخ، وإذا طبخ فهو فخار.. والحمأ هو الطين الأسود المتغير[٥].

إن أصل الإنسان وأصل الحياة كلها من طين هذه الأرض ومن عناصره الرئيسية التى تتمثل بذاتها فى تركيب الإنسان الجسدى وتركيب الأحياء أجمعين. فالطين هو المصدر الأول أوالطور الأول والإنسان هو الطورالأخير، والقرآن يقرر هذه الحقيقة ليتخذها مجالا للتدبر فى صنع الله، ولتأمل النقلة البعيدة بين الطين والإنسان المتسلسل فى نشأته من ذلك الطين[٦].

إذن فنشأة جنس الإنسان من غذاء الأرض، أومن عناصرها التى يتألف منها عناصر تكوينهم الجسدى. ومع أنهم من عناصر هذه الأرض فقد استخلفهم فيها ليعمروها، استخلفهم بجنسهم، واستخلفهم بأشخاصهم بعد الذاهبين من قبلهم.

من هنا كانت بداية البحث بهذا الحديث عن بعض الظواهر الكونية فى السماء والأرض ، لأنها ذات تأثير مباشر على حياة الكائن الحى، والنبات أحد هذه الكائنات الحية التى تتأثر بهذه الكونيات التى نتجت عن انفصال الأرض عن السماء، هذا الانفصال الذى يعد تمهيدا لنشأة الحياة على الأرض.

---

(١) الحجر ٢٧

(٢) المؤمنون ١٢.

(٣) ص.٧٢.

(٤) الكشاف جـ١، ص ٢٧٢.

(٥) السابق، جـ٢، ص ٣٦٠.

(٦) فى ظلال القرآن ، جـ١٨، ص ٢٤٥٧.

وكما ذكرت، فالإنسان هو المخلوق الأول الذى تعود عليه الفائدة من ذلك كله، لأن الكون بما فيه معد ومسخر لخدمة الإنسان الذى خُلق لعبادة الله تعالى القائل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1].

(١) الذاريات ٥٦.

الفصل الثاني
المـــــاء والنبـــات

الفصل الثانـــى
المـــاء والنبـــات

فى الفصل السابق، أوضحت علاقة السماء بالأرض ، وذكرت أن الماء نازل من السماء وله علاقة مباشرة بكواكبها. إذن فتكوين الكون على هذا النظام هو الذى يسمح بنزول الماء من السماء ويسمح كذلك بإسكانه فى الأرض.

لقد نزل القرآن الكريم أول مانزل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، فى مكة، وهى بلد صحراوى، حيث إنهاتقع داخل نطاق شبه جزيرة العرب، وهى جزيرة لاتوجد بها أنهار أوجداول مائية. لذلك فإن الماء يمثل لهؤلاء القوم شيئا ذا قيمة أدركوا عدم معيشتهم بدونه.

إنها بيئة فقيرة إلى الماء، وتجد معاناة فى سبيل الحصول عليه، لذلك عندما أنزل الله تعالى القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم. كان لابد أن تتخلله أمور جديدة وجذابة بالنسبة للعرب.أمور تختلف عن حياتهم ومابها من صعوبة وشظف عيش. والماء من بين هذه الأمور، سواء كان ماء أمطارأم ماء أنهار. والمعروف أن العرب فى مكة لم يألفوا الاعتماد على مياه الأنهار، وإنما كان جُل اعتمادهم على مياه الأمطارالتى تسقط بنظام غير ثابت. مما نتج عنه معاناة أهل هذه البلاد وفقرهم إلى الماء. وكانت نتيجة ذلك عدم وجود أنواع زراعة عندهم. ولكن الشىء الذى كانت تخدمهم فيه الأمطار تمثل فى رعى الأغنام على الأعشاب والنباتات التى نبتت على أثر سقوط هذه الأمطار. مما جعلهم فى سعى وترحال وراء تلك المراعى.

وبذلك يكون القرآن بما فيه من آيات تصور الماء للعرب بصور مختلفة، منقذا لهم من هذه الحياة الصعبة التى كانوا يعيشونها. وكأن الله تعالى طوال السنين التى

سبقت نزول القرآن يمهد لانتشار دينه، وذلك بالتقليل من هذه الأشياء، فعندما يأتى لهم مبشر بهذا الشىء الذى تصبو إليه نفوسهم، يؤمنون به ويتبعون طريقه.

فتركيز القرآن على الماء والنبات هذين العنصرين اللذين لاتقوم الحياة بدونهما لم يكن من قبيل المبالغة، وإنما كان له حكمة وهدف عظيم، يتمثل فى اثبات قدرة الله تعالى على أن يأتى بالماء، فلو شاء أتى به، ولو شاء منعه وهلك هؤلاء القوم.

وبما أن الماءأساس كل كائن حى، فإن طبيعة البحث تقتضى حديثا عن خلق الكائنات الحية من الماء. حيث وردت آيات كثيرة تؤكد أن كل كائن حى مرده إلى الماء. يقول تعالى: وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ[1].

فالماء هو سر الوجود، والدعامة الأولى فى تكوين الكون، لذا جعل الله حياة كل شىء منه. وإن كان يظهر من الطبيعة أن الماء فى باطن الأرض، إلا أنه سابق عليها وهو الأصل فى تكوينها لقوله جل وعلا: وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ[2].

إنه النعمة الكبرى التى أنعم الله بها على بنى البشر، منه أقام حياتهم، وقسم أرزاقهم ومنه خلقهم، فهو أثمن ما تملك البشرية إذ لا استمرار لها إلا به.

وإذا كان الحق تعالى بدأ بذكر أن كل شىء خلق من الماء، فإنه تدرج من هذا الكل إلى الجزء حيث نص القرآن على أن كل دابة خلقت من الماء، تذكيرا بقدرته التامة فى خلقه أنواع المخلوقات من ماء واحد.

---

(١) الأنبياء ٣٠.

(٢) هود ٧.

يقول تعالى: وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ[١].

وسبب تنكير الماء فى هذه الآية هو "أنه تعالى خلق كل دابة من نوع من الماء مختص بتلك الدابة. وسبب تعريفه فى الآية السابقة، هو أن أجناس الحيوان كلها مخلوقة من هذا الجنس الذى هو جنس الماء[٢].

وعلم الإنسان قاصر عن معرفة كل الدواب التى خلقت من الماء. قال فخر الدين الرازى: اعلم أن العقول قاصرة عن الإحاطة بأحوال أصغر الحيوانات على الكمال، والاستدلال بها على الصانع ظاهر، لأنه لو كان الأمر بتركيب الطبائع لكان فى الكل على السوية، فاختصاص كل واحد من هذه الحيوانات بأعضائهاوأعمارها ومقادير أبدانها، لابد وأن يكون بتدبير قاهر حكيم[٣].

ولكن أليس الإنسان أهم هذه الدواب التى خُلقت من ماء،؟

يقول تعالى: وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا[٤].

ويقول جل شأنه: أَلَمْ نَخْلُقْكُم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ[٥].

ويقول أيضا: فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ. خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ[٦].

لقد خلق الله الإنسان من نطفة ضعيفة فسواه وعدله، وجعله كامل الخلقة، ذكر أو أنثى، كما يشاء فهو فى ابتداء أمره ولد نسيب ثم يتزوج ويصهر ثم له أصهار وقرابـــــات

(١) النور ٤٥.
(٢) الكشاف جـ٣، ص ٧١.
(٣) التفسير الكبير، جـ٢٤، ص ١٩، دار الفكر العربى، ١٩٨١.
(٤) الفرقان ٥٤.
(٥) المرسلات ٢٠.
(٦) الطارق ٥-٦.

وكل ذلك من ماء مهين. وفى ذلك تنبيه للإنسان على ضعف أصله الذى خلق منه، وارشاد له إلى الإعتراف بالميعاد لأن من قدر على البداءة فهو قادر على الإعادة بطريقه الأولى[١].

وتشاء الحكمة الإلهية أن تكون حياة هذه الكائنات المخلوقة من الماء، على نفس جنس ما خلقت منه. إذ خلقها الله تعالى من الماء، وجعل حياتها تمتد وتستمر عليه فالماء يدخل فى تركيب أى جسم حى وبنائه بل هو المكون الأصلى فى تركيب مادة الخلية الحية.

يقول تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾[٢].

فالتعبير القرآنى يرد كل حركة إلى الله حتى شرب الماء "فأسقيناكموه" والمقصود أننا جعلنا خلقتكم تطلب الماء وجعلنا الماء صالحا لحاجاتكم[٣].

ومن رحمته أن أنزل الماء وجعله عذبا وحفظه فى العيون والآبار والأنهار، لكى يبقى طول السنة يشرب منه الناس ويسقون أنعامهم وزروعهم.

ووصف الرياح فى الآية القرآنية،أكسبها حياة حيوانية، تلقح وتنتج "أى تلقح السحاب، فتدر الماء، وتلقح الشجرة فتفتح عن أوراقها وأكمامها وذكرها بصيغة الجمع، ليكون منها النتاج، بخلاف الريح العقيمة فإنه أفردها ووصفها بالعقم[٤].

---

(١) ابن كثير جـ٣، ص٣٣٢و جـ٤، ص ٤٩٨.

(٢) الحجر ٢٢.

(٣) فى ظلال القرآن جـ١٤، ص ٢١٣٥.

(٤) ابن كثير جـ٢ ص٥٦٥.

ولقد عدد القرآن الأغراض فى ارسال الرياح، حيث أرسلت للبشارة بالغيث ولاذاقة الرحمة وهى نزول المطر وحصول الخصب الذى يتبعه، وزكاء الأرض، وتذرية الحبوب وغير ذلك...[١].

يقول تعالى : وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ[٢].

ولأهمية هذا المطر، فإنه إذا تأخر هطوله فترة طويلة، يئس القوم من نزوله، وعندما يمن الله عليهم برحته يستبشرون ويفرحون بالماء. ولا يعرف هذا الاستبشار على حقيقته كما يعرفه الذين يعيشون على المطر. والعرب أعرف الناس بهذا، وحياتهم كلها تقوم على ماء السماء، وقد تضمنت ذكره أشعارهم وأخبارهم فى لهفة وحب.

يقول تعالى مصورا حالهم حين يتأخر نزول المطر وحين يستبشرون بالرياح المحملة بالماء: اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ. وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ. فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرّاً لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ[٣].

فهذا تصوير لحالهم قبل أن ينزل عليهم المطر، ثم بعد ذلك حولهم من اليأس إلى الاستبشار. وهذا أثر من أثار رحمة الله فى النفوس المستبشرة بعد القنوط وفـــى الأرض

---

(١) الكشاف: جـ٣، ص ٢٢٥.

(٢) الروم ٤٦.

(٣) الروم ٤٨-٥١

المستبشرة بعد الهمود، ترى وقد اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج. "ثم نبه بذلك على إحياء الأجساد بعد موتها، وتفرقها وتمزقها، فالذى فعل ذلك قادر على إحياء الأموات..ولئن أرسل سبحانه وتعالى ريحا يابسة على الزرع الذى زرعوه ونبت وشب واستوى على سوقه فرأوه مصفرا، أى قد اصفر وشرع فى الفساد لظلوا من بعد هذه الحال يكفرون أي يجحدون ماتقدم إليهم من النعم..وقيل الرياح ثمانية. أربعة منها رحمة وأربعة منها عذاب. فأما الرحمة، فالناشرات، والمبشرات والمرسلات، والذاريات. وأما العذاب فالعقيم والصرصر وهما فى البر، والعاصف والقاصف وهما فى البحر.. والرياح مختلفة فى منفعتها وتأثيرها، فريح لينة رطبة تغذى النبات وأخرى تجففه وأخرى تهلكه، وأخرى توهنه وتضعفه [1].

والآيات تحمل دلالة على أن "عهدهم بالمطر قد تطاول وبعد فاستحكم بأسهم وتمادى ابلاسهم، فكان الاستبشار على قدر اغتمامهم بذلك... ورحمة الله هى الغيث وأثرها النبات... وذمهم الله تعالى بأنه إذا حبس عنهم القطر قنطوا من رحمة الله، وضربوا أذقانهم على صدورهم مبلسين، فإذا أصابهم برحمته ورزقهم المطر استبشروا وابتهجوا فإذا أرسل ريحا تضرب زروعهم بالصفار ضجوا وكفروا بنعمة الله، فهم فى جميع هذه الأحوال على الصفة المذمومة، فكان عليهم أن يتوكلوا على الله وفضله، فقنطوا، وأن يشكروا نعمته فلم يزيدوا على الفرح والاستبشاروأن يصبروا على بلائه فكفروا"[2].

وفى ذلك توجيه لأهل مكة، لأن الماء أهم نقاط ضعفهم، فهم لايملكون مفاتيحه، فما عليهم إلا انتظار هطوله من السماء، لأن بيئتهم بيئة رعى فى الغالب، فإذا غاب الماء، جفت المراعى وتعرضت أنعامهم للهلاك.

فاحتفال القرآن بالماء من قبيل أهمية الماء فى تلك البيئة الصحراوية. ومن هنامثل القرآن لقدرة الله بالماء يقول تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ

(١) ابن كثير جـ٣، ص ٤٥٢.

(٢) الكشاف جـ٣، ص ٢٣٦.

السماء ماء طهوراً. لنحي به بلدة ميتاً ونسقيه مما خلقنا أنعاماً وأناسي كثيراً. ولقد صرفناه بينهم ليذكروا فأبى أكثر الناس إلا كفوراً[١].

فالرياح تقوم بتبخير الماء من البحار والأنهار وتحوله إلى كتل من السحاب، فيساق السحاب بسرعة البرق إلى الأرض المجدبة، وفوقها ينهمر الغيث، فتخضر الأرض وترتوى الكائنات ويشرب العطشى بعد أن كادوا أن يهلكوا، وهذه حياة الأرض بعد موتها بالانبات بعد أن كانت جرداء لاحياة عليها، فتصبح حية بالزروع والثمار، تكفى ما عليها من الكائنات بقدرة الله[٢].

نحن-المسلمين-لاندهش عندما يفاجئنا القرآن بما لم نعلمه الإ بعد أبحاث لا ندهش لأننا نعلم أن عجائبه لاتنتهى، ونؤمن بأن هذا القرآن هو كلام الله العليم. وهذه الآيات كلها معجزات، إذ أثبت العلماء أن الرياح تلقح السحاب ، وكذلك تلقح الشجر... ومن خلال دراستنا عن النبات علمنا أن هناك تلقيحا هوائيا بين النباتات المذكرة والنباتات المؤنثة.

ولكن هل كان فى الجزيرة العربيةوالعالم من حولها أيام نزول القرآن أو قبله من يعلم أن الرياح لواقح للنبات؟

إن هذا إعجاز خاص بالقرآن، ولم يكتشف هذا إلا حديثا. إننا نعيش عصر العلم، ومع ذلك من الناس من لايعلم عن ذلك شيئا فما بالنا بالعرب القدماء!!

وتطالعنا الصحف من آن لآخر بأنباء الجفاف الذى يصيب بعضا من البلاد، نتيجة لعدم هطول الأمطار، ويكون هذا فى بلاد تعتمد على ماء المطر كارثة لاتخفى نتائجها، فتموت

(١) الفرقان٤٨ - ٥٠.
(٢) د. محمد عبد الله مظاهر كونية ص ٦٠.

الأرض بعد خضرة، وتختفى المراعى، وتصير الأرض جرداء كالحة، ولايجد الناس ما يأكلون، فتكون المجاعة والهجرة إلى أرض حية[١].

وفى ديننا الاسلامى الحنيف شرعت صلاة الاستسقاء وهى بمثابة دعاء إلى الله تعالى الذى خلق السحاب وسيره، ويقدر على انزال المطر منه. أن ينزل هذا الماء إلى الأرض الجرز، ليستفيد منه الإنسان والحيوان وكل كائن حى.

ونلحظ فى الآية القرآنية السابق ذكرها تقديما لاحياء الأرض وسقى الأنعام على سقى الإناس،وذلك لأن حياة الإناس بحياة أرضهم وأنعامهم، فقدم ماهوسبب حياتهم وتعيشهم على سقيهم، ولأنهم إذا ظفروا بما يكون سقيا أرضهم ومواشيهم لايعدمون سقياهم[٢].

وفيها كذلك نلحظ أن التعبير بالحياة والموت يخيل أن الأرض كائن حى يحيا ويموت، وإنها لكذلك فى حقيقتها التى يصورها القرآن، لأن الماء حين يصيب الأرض يبعث فيها الخصب فتنبت الزرع الحى، وتموج صفحتها بالحياة المنبثقة فى هذا النبات، ومن ثم فى الحيوان والإنسان فالماء رسول الحياة، حيث كان تكون الحياة[٣].

يقول تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[٤].

ويقول جل شأنه: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾[٥].

---

(١) د. محمد الطوبى: وجعلنا من الماء كل شىء حى، اقرأ، دار المعارف، ص ١٤٥. ومابعدها.

(٢) الكشاف جـ٣، ص ٩٥.

(٣) فى ظلال القرآن جـ٢١، ص ٢٧٦٥.

(٤) الروم ٢٤.

(٥) الشورى ٢٨.

وإذا كانت هذه الآيات تساق لتثبت أن الله تعالى هوالذى خلق البشر، وهو الذى بيده مفاتيح أرزاقهم، فإن فيها دلالة أخرى، هى أن الله مثلما خلق الناس من الماء وجعل حياتهم قائمة عليه، فهو سبحانه قادر على بعثهم واعادتهم مرة أخرى.

ولكن ماذا تعنى كلمات الخوف والطمع فى آية سورة الروم السابقة؟.

يقول صاحبالكشاف: إن من البلاد مالاينتفع أهله بالمطر كأهل مصر. ويطمع فيه من له فيه نفع ويحيا به[١].

ومعنى كلام الزمخشرى أن البلاد التى لاينتفع أهلها بالمطر تخاف المطر وكأنه عائق لهم ، لأن بها مايغنى أهلها عنه من الأنهار. أما البلاد التى لاتجرى بها أنهار فإنها تترقب المطر وتنتظره طمعا فى أن يحيها أى يحيى نباتها وأنعامها.

ولفظ الغيث المختار فى بعض آى التنزيل، يلقى ظل الغوث، وتلبية المضطر فى الضيق، كما أن تعبيره عن آثار الغيث "وينشر رحمته"، يلقى ظلال النداوة والخضرة التى تنشأ عن تفتح النبات فى الأرض وارتقاب الثمار[٢].

ولنا أن نتخيل قوما وقد غاب عنهم الغيث، ووقفوا عاجزين عن سبب الحياة الأول - الماء - وأدركهم اليأس والقنوط، ثم ينزل الله الغيث، فتحيا الأرض، وينبت البذر ويترعرع النبات وتنطلق الحياة.

ولهذاكان الماء وسيلة من وسائل تحذير أهل مكة لعنادهم وجحودهم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم. يقول تعالى: قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ[٣].

---

(١) الكشاف جـ٢، ص ٣٥٣.

(٢) فى ظلال القرآن جـ٢٥، ص ٣١٥٧.

(٣) الملك ٣٠.

فالماء أعز مفقود وأهون موجود وهو من أعظم نعم الله على الإنسان.. فليس حى من الإنسان والحيوان والنبات إلا وفيه ماء أو خلق من ماء[١].

والماء الغور هو الماء الغائر الذاهب فى الأرض لايقدرون عليه، والمعين الفائض المتدفق، وهى لمسة قريبة فى حياة أهل مكة، إذ كانوا يستبعدون ذلك اليوم ويشكون فيه.. فكيف لو توجهت إرادة الله إلى حرمانهم مصدر الحياة القريب! ثم يدعهم يتدبرون مايكون لو أذن الله بوقوع هذا المحذور[٢].

يقول تعالى :﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ. أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ. لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْ لَا تَشْكُرُونَ﴾[٣].

أى لو يشاء الله لجعل هذا الماء مرا لايصلح لشرب ولالزرع، فلولا تشكرون" أى فهلا تشكرون نعمة الله عليكم فى إنزاله المطر عليكم عذبا ذلالا.. وروى أن الرسول كان إذا شرب الماء قال: الحمد الذى سقاناه عذبا فراتا برحمته ولم يجعله ملحا أجاجا بذنوبنا[٤].

هذا وإذا كان هذا الكلام موجها لأهل مكة، فإن ذلك لأن القرآن نزل أولا فى بيئتهم ، ووجه إليهم، وهم قوم عرفوا بين الأمم بفصاحة اللسان، وبراعة البيان، إذا قالوا أحسنوا القول، فجمعوا فيه بين شرف اللفظ وكرم المعنى، وإذا سمعوا الكلام البليغ أقبلوا عليه ، وكانوا مع ذلك أولى حمية وإعجاب بالنفس شديد.

ويجدر بى أن أتحدث عن الماء فى القرآن المدنى، فأقول إن أهل المدينة عندما انتقل الرسول صلى الله عليه وسلم إليهم وعاش بينهم قرأوا القرآن المكى وفهموه بل حفظوه فى

---

(١) تفسير سورة الرحمن وسور قصار، ص ٢٣٨.

(٢) فى ظلال القرآن جـ٢٩، ص ٣٦٤٨.

(٣) الواقعة ٦٧-٦٩.

(٤) القرطبى، جـ١٧، ص ٢٢٠، وابن كثير جـ٤، ص ٢٩٦.

صدورهم، ولذلك لم يعد القرآن بحاجة إلى أن يقرر لهم ويعيد ماجاء فى القرآن المكى، خاصة وأنهم أقبلوا اقبالا شديدا على الدين الإسلامى الحنيف، ولم يجادلوا أو يعاندوا محمدا بل أعلن جلهم إسلامه فور نزول الرسول أرض يثرب.

وكذلك خلا القرآن المدنى من التحذير أو التهديد بالماء وذلك لأنهم آمنوا بالقرآن إيمانا كفاهم تحذير منزله سبحانه، أما أهل مكة(١) فالقرآن يعرض عليهم فى كل مرة مشاهد مألوفة ومحسوسة، تطالع حواسهم فى كل لحظة، وتتصل بحياتهم ومعاشهم وتلمس شعورهم ووجدانهم.وهو يوجههم إلى هذه المشاهد ويعرضها عليهم كأنها مشاهد جديدة، وإن مشاهد الطبيعة لجديدة أبدا عند من ينظر إليها بحس مرهف وعين مفتوحة(١).

وارتباط الماء بكل شىء حى ارتباط لاغنى عنه، لذلك فالآيات التى تتحدث عن النبات يكون الماء عنصرا أساسيا فيها، إذ أنه المصدر الأساسى فى إنبات النبات واحيائه ولقد حظى النبات والزروع واخضرار الأرض بالنصيب الأوفى من حديث المولى عن الماء، اذ ذكر الماء مقترنا بالنبات فى أماكن كثيرة، لأن النبات بالنسبة للإنسان والحيوان أهم ضروريات الحياة، فهو وسيلة تجديد الأكسجين اللازم للتنفس، ولولاه لماتت الحيوانات التى تتغذى عليه، ومن ثم انتهت حياة الإنسان، إذ أن غذاءه إما نبات أو حيوان (٢).

يقول تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(٣).

(١) التصوير الفنى فى القرآن، ص ١٨٩.
(٢) الماء سائل الحياة، جمال الكومى، ص ١٩، دار الاعتصام بدون تاريخ.
(٣) الأنعام ٩٩.

فهذه آية من الآيات التى تصور رحلة النبات حتى يصل إلى أكمل صورة، منذ نزول الماء إلى أن يخرج ثمره ويأكله البشر.

والآية نصت على أن السبب واحد وهو الماء والمسببات صنوف، فأخرج الله من هذا النبات شيئا غضا أخضر، وهو ما تشعب من أصل النبات الخارج من الحبة، فأخرج من الخضر حبا متراكبا وهو السنبل... وقنوان دانية أي سهلة المجتنى كالشىء الدانى القريب التناول[1].

والنخل والعنب أشرف الثمار عند أهل الحجاز وربما كانا خيار الثمار فى الدنيا.. "والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه" أي متشابه فى الورق والشكل، ومختلف فى الثمار شكلا وطعما ،وقوله "انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه" أي فكروا فى قدرة خالقه من العدم إلى الوجود.. وكذلك الزيتون والرمان من عطف الخاص على العام لمزيد الشرف لأنهما من أعظم النعم[2].

ولفظ الجنة فى الآية جدير بالوقوف عنده قليلا، فهو بالطبع كان معروفا عند العرب، وإلا لما ذكر فى القرآن، فهو نابع من صميم بيئتهم، وهم يدركون أن معنى الجنة يتمثل فى الحدائق والبساتين وإن لم يكونوا عاشوها، أو امتلكوها فإنهم شاهدوها أثناء رحلاتهم التجارية. ومن لم يرها منهم عندما يسمع أو يقرأ هذه الآيات فإن خياله يجول مستحضرا هذه الصورة الرائعة أمام عينيه. وبذلك يكون الجمال عنصرا مقصودا فى القرآن لأن أجمل شىء أن يرى الإنسان حديقة أو يجلس فيها، وقد نصت الآية على ذلك حين قال تعالى : انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه "أي انظروا إليه بالحس البصير والقلب اليقظ... انظروا إليه فى ازدهاره، وازدهائه عند كمال نضجه، انظروا إليه واستمتعوا بجماله... إن المجال هنا مجال

(١) الكشاف جـ٢،ص ٣٩.

(٢) ابن كثير جـ٢، ص ١٦٣، وانظر أحكام القرآن، جـ٧، ص ٤٧-٥٠.

جمـال ومتاع ، كما أنه مجال تدبر فى آيـات اللـه،.. بدليل أنه لم يقل كلـوا ، ولكـن قال انظروا[١].

وهذا يعد من قبيل التنسيق الجمالى فى الكون، ويظهر أكثر عندما نقارن بين مكان قفر، ومكان تملؤه الخضرة ويكسوه الجمال الإلهى.

كتب قيصر الروم إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه : أما بعد فإن رسلى أخبرتنى أن قبلكـم شجـرة تخرج مثل آذان الفيلة، ثم تنشـق عن مثـل الـدر الأبيض، ثم تخضـر كالزمـرد الأخضر، ثم تحمر فتكون كالياقـوت الأحمر، ثم تنضج فتكون كأطيب فالوذج أكل، ثم تينع وتيبس فتكون عصـمة للمقيم وزادا للمسافر، فإن تكن رسلى قد صدقت فإنها من شجر الجنة.

فكتب اليه عمر: بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى قيصر الروم السلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإن رسلك قد صدقتك وإنها الشجرة التى أنبتها الله عز وجل على مريم حين نفست بعيس، فاتق الله ولاتتخذ عيسى إلها من دون الله[٢].

يقول تعالى: هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ. يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ[٣].

---

(١) فى ظلال القرآن، جـ٧، ص ١١٦١.

(٢) كتاب النخل لأبى حاتم السجستانى ،ص٤٧، وما بعدها، دار اللواء للنشر،مؤسسة الرسالة، وابن كثير جـ٤، ص ٢٧٠، ومابعدها.

(٣) النحل ١٠-١١.

فبيئة كبيئة العرب فى الجزيرة العربية يحمل فيها الشجر من معانى الظل والراحة كثيرا. وبمناسبة ذكر المراعى فى الآية، يجدر أن نتخيل إنسانا وهو يرعى أنعامه فى مكان قفر من أماكن الجزيرة العربية، وقد منّ الله عليه بأشجار يتخذها ظلا ومقيلا وقت اشتداد الحر وهو تخيل يبرز مدى حب الإنسان العربى للأشجار ومدى ولعه بها، لذا حرص القرآن على تصويرها تصويرا يريح النفوس.

وارتباط الماء بالنبات ليس مقصورا على لحظة النمو واخراج الثمر، ولكن الله تعالى ينزل الماء فيبقى فى الأرض كى يستفيد منه كل كائن حى على ظهر الأرض، فالأنهار الجارية أساسها ماء أنزل من السماء فاحتفظت به الأرض وصارت أودية كى يستخدمها الإنسان فى أى وقت يشاء يقول تعالى: وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ. فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ. وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ[1].

يذكر تعالى نعمه على عبيده فى إنزاله القطر من السماء بحسب الحاجة، لاكثيرا فيفسد الأرض، ولا قليلا فلا يكفى الزوع بل بقدر الحاجة إليه من السقى والشرب، حتى إن الأرض التى تحتاج ماء كثيرا لزروعها ولا تحتمل دمنتها إنزال المطر عليها يسوق إليها الماء من بلاد أخري كما فى أرض مصر، ويقال لها الأرض الجرز، يسوق الله إليها ماء النيل معه طين أحمر فيسقى أرض مصر ويقر الطين على أرضهم ليزرعوا فيه وقوله تعالى :فأسكناه فى الأرض أي جعلنا الماء إذا نزل من السحاب يخلد فى الأرض وجعلنا فى الأرض قابلية له ويشربه ويتغذى به ما فيها من الحب والنوى.. وكذلك أخرج به جنات أي بساتين وحدائق ذات منظر حسن فيها من النخيل والأعناب وهذا ماكان يألف أهل الحجاز[2].

---

(١) المؤمنون ١٨-٢٠.

(٢) ابن كثير جـ٣، ص ٢٥٠، وانظر القرطبى، جـ١٢، ص ١١٢، الكشاف جـ٣، ص ٢٨.

وما النخيل والأعناب إلا نموذجان من الحياة التى تنشأ بالماء فى عالم النبات، كما ينشأ الناس من ماء النطفة فى عالم الإنسان، نموذجان قريبان لتصور المخاطبين إذ ذاك بالقرآن، يشيران إلى نظائرهما الكثيرة التى تحيا بالماء... ثم تنقلنا الآية الكريمة إلى شجرة عظيمة، وهى شجرة الزيتون "وهى شجرة تزرع فى سيناء منذ آلاف السنين، وتعمر أشجارها أحيانا إلى أكثر من ألفى سنة.. وهناك صنفان شائعان منها أحدهما ثماره صغيرة والآخر ثماره كبيرة وزيتها من أجود الأنواع الصالحة للاستخدام الآدمى، وثمارها ملتبس بها الدهن[١].وهى تنبت هناك من الماء الذى أسكن فى الأرض، وذكر هذا المكان على وجه خاص لتذكير العرب بالوادى المقدس.

يقول تعالى: وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا.لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا. وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا[٢].ويقول جل شأنه :وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ. وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ. رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ[٣].

قال أبو حيان: إن النظر فى هذه الآيات يحتاج إلى فضل تأمل واستعمال فكر، ألا ترى أن الحبة الواحدة إذا وضعت فى الأرض ومر عليها زمن معين لحقها من نداوة الأرض ماتنتفخ به فيشق أعلاها فتصعد منه شجرة إلى الهواء، وأسفلها يغوص منه فى عمق الأرض شجرة أخرى وهى العروق، ثم ينمو الأعلى ويقوى وتخرج الأوراق والأزهار والأكمام والثمار المشتملة على أجسام مختلفة الطبائع والألوان والمنافع، وذلك بتقدير قادر هو الله تعالى[٤].

---

(١) اعجاز النبات فى القرآن. د. نظمى أبو العطا، مكتبة النور، ص ٩١.

(٢) النبأ ١٣-١٥.

(٣) ق ٩-١١.

(٤) البحر المحيط جـ٥، ص ٤٧٩.

لقدوصف الماء فى الآيات السابقة بالبركة لأنه جعل سببا فى انبات جنات الفاكهة، وحب الحصيد، وهو النبات المحصود الذى يقتات به من نحو الحنطة والشعير وغيرهما، وكذلك جعل الماء سببافى انبات النخل الذى وصف بالسموق والجمال وهو وصف مقصود لابراز جمال الطلع المنضد فى النخل الباسق، رزقا للعباد، رزقا يسوق الله سببه ويتولى نبته ويطلع ثمره للعباد[١].

إن عالم النبات يشبه عالم الإنسان، فكلاهما يسعى للحفاظ على نوعه. وعالم النبات ماهو إلا مملكة تسعى دائما من أجل ارتقائها إلى الأفضل، وذلك باختيار الحياة المناسبة مع الكائن الحى المناسب فى هذا العالم، ولذلك يوجد فى هذا العالم أزواج مثلما فى عالم الانسان.

يقول تعالى: خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ[٢].

فهذا تقرير قرآنى، يثبت أن النبات خلق أزواجا وهى حقيقة ضخمة اهتدى إليها العلم مؤخرا. فكل نبات له خلايا تذكير وخلايا تأنيث..ولاتوجد الثمرة إلا بعد التقاء وتلقيح بين زوج النبات كما هو الشأن فى الإنسان والحيوان.

لقد عبر الحق عن الماء النازل من السماء بالرزق فى قوله تعالى "وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ[٣]. وذلك لأن عليه تنبت البساتين ذات المنظر الحسن والشكل البهى كما قال

(١) فى ظلال القرآن، جـ٢٦، ص ٣٣٦١.
(٢) لقمان ١٠
(٣) الذاريات٢٢

تعالى: أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ[1].

وقوله تعالى حدائق ذات بهجة يشى بأن لعالم الألوان فى القرآن اهتماما خاصا ينسجم مع التنسيق الكلى لهذا الكون " وهو تناسق يبعث البهجة والنشاط فى القلب.. وإن تلوين زهرة واحدة وتنسيقها ليعجز عنه أعظم رجال الفنون من البشر، وإن تموج الألوان وتداخل الخطوط وتنظيم الوريقات فى الزهرة الواحدة ليبدو معجزة تتقاصر دونها عبقرية الفن فى القديم والحديث[2].

إنها نباتات تسر النظر بما فيها من خضرة وظل وأزهار وثمار، ولم يختصر الأمر فيقول لتأكلوا منها لأن الذي يأكل هو الذى يملك فقط، لكن جمال المنظر ملك لكل من يراه ويستمتع به.

يقول تعالى: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ.وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ[3].

فهذا تنبيه من الله على كمال قدرته فى خلق الأشياء المتنوعة المختلفة من الشىء الواحد، وهو الماء الذى ينزله من السماء يخرج به ثمرات مختلفا ألوانها من أصفر وأحمر وأخضر وأبيض إلى غير ذلك من ألوان الثمار كما هو مشـــاهد من تنوع ألوانهـــا وطعومهـا

(١) النمل ٦٠
(٢) فى ظلال القرآن جـ٢٠، ص ٢٦٥٦.
(٣) فاطر ٢٧-٢٨.

وروائحها... وخلق الجبال كذلك مختلفة الألوان وكذلك الحيوانات من الناس والدواب والأنعام هى مختلفة أيضا[١].

ولأن المعرض هنا معرض أصباغ فإنه لم يذكر هنا من الثمرات إلا ألونها.. وألوان الثمار معرض بديع للألوان يعجز عن ابداع جانب منه جميع الرسامين فى جميع الأجيال. فما من نوع من الثمار يماثل لونه نوع آخر بل ما من ثمرة يماثل لونها لون أخواتها من النوع الواحد.. وينتقل من ألوان الثمار إلى ألوان الجبال..لأن فى ألوان الصخور شبها عجيبا بألوان الثمار[٢].

ولكن هل كان العرب على علم بتناسق الألوان قبل أن ينزل عليهم القرآن الكريم؟

أقول إنهم كانو يعيشون فى بيئة يشعرون من خلالها بقيمة الجمال فى عالم النبات، لأن الشعور بالجمال فطرة جبل عليها الإنسان. لكن هذا لم يهدهم إلى تقديم أنواع من الفنون تعتمد على براعة التقليد لعالم النبات، لكنهم برعوا فى تقديم أوصاف له من خلال أشعارهم، وقصائدهم التى دلت على حسهم المرهف.

ولذلك عندما نزل عليهم القرآن كان لابد وأن تقف عقولهم وتأملاتهم عند كل لفظ ورد فيه، لذلك يمكن أن يقال إن هذه الآيات كانت النبراس الذى استضاء بنوره وسار على هديه الفنانون التشكيليون المسلمون وممن سار على نهجهم واهتدى بهديهم منذ صدر الإسلام وحتى هذا الوقت.

لقد سار على نهجهم وتأثر بهم كثير من التشكيليين الأوربيين، أولئك الذين كانت أعمالهم الينبوع الذى تدفقت منه المدارس الفنية الحديثة. لقد استغرق الأوربيون قرابة ثلاثة

(١)تفسير ابن كثير جـ٣، ص ٥٧١.

(٢) فى ظلال القرآن جـ٢٢، ص ٢٩٤٢

عشر قرنا كى يتفهموا الفن الاسلامى، ويقتبسوا منه قبسا يصنعون به ثورة تشكيلية نشاهد آثارها اليوم فيما يسمى بالفن المعاصر[١].

إن عنصر الجمال فى الكون يبدو مقصودا قصدا تاما فى تصميمه وتنسيقه، ومن كمال هذا الكون أن وظائف الأشياء تؤدى عن طريق جمالها. فهذه الألوان العجيبة فى الأزهار تجذب النحل والفراش مع الرائحة الخاصة التى تفوح،ووظيفة النحل والفراش هى القيام بنقل اللقاح لتنشأ الثمار. وهكذا تؤدى الزهرة وظيفتها عن طريق جمالها. والجمال فى الجنس هو الوسيلة لجذب الجنس الآخر إليه لأداء الوظيفة التى يقوم بها الجنسان[٢].

وإذا كانت الآيات خاطبت العرب من قبل، فإنها فى الوقت نفسه صالحة لكل زمان ومكان، وتخاطب البشر على اختلاف أزمنتهم وأمكنتهم، وذلك لأن الرزق بإنزال الماء من السماء واخراج الثمر من الأرض ليس مقصورا على عصر دون عصر ولا على قوم دون قوم. وإذا تأملنا حالنا الآن ولاحظنا الطبيعة الغنية سنجد أن هذه الآيات تخاطبنا كما خاطبت العرب من قبل.

وإذا كان القرآن من بين أساليبه ابراز المعنى الواحد بأساليب وصور مختلفة، فذلك من قبيل تحدى الكفار واثبات عجزهم وضعفهم حيال هذا الكتاب، وأنهم مهما وصلوا من بلاغة وفن قول، لن يصلوا إلى بلاغة القرآن ونظمه لأنه المعجزة الخالدة.

وكماأن آيات الماء والنبات تلمس الوجدان مباشرة لأنهما سببا الحياة الأساسيان، فإنها تحمل دلالة أخرى متمثلة فى استدلال القرآن بهما على البعث مرة أخرى. إذ شبه القرآن إحياء الأجسام بعد ما صارت عظاما بالية، بعملية انزال الماء على الأرض ثم اخراج النبات منها.

---

(١) الألوان فى القرآن ، أحمد رأفت، ص ٩٧، مطبعة الأمانة، نشر ار المعارف.

(٢) فى ظلال القرآن،جـ٢٢، ص ٢٩٤٣

يقول تعالى : ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾[١].

ويقول تبارك اسمه: ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾[٢].

إن المنصفين إذا نظروا فى خلق أنفسهم وفى خلق ما على ظهر الأرض من صفوف الحيوان ازدادوا إيمانا، وأيقنوا وانتفى عنهم اللبس ، فإذا نظروا فى نزول الأمطار وحياة الأرض بعد موتها خلص يقينهم[٣].

والنشر فى قوله تعالى "فأنشرنا به بلدة ميتا" مستعار وحقيقته أظهرنا به النبات والأشجار والثمار ، فكانت كمن أحييناه بعد اماتته، فكأنه قيل أحيينا به بلدة ميتا من قولك أنشر الله الموتى فنشروا وهذه الاستعارة أبلغ من الحقيقة لتضمنهامن المبالغة ماليس فى أظهرنا والإظهار فى الإحياء والإنبات إلا أنه في الإحياء أبلغ[٤].

فالذى أنشأ الحياة أول مرة كذلك يعيدها، والذى أخرج الأحياء أول مرة من الأرض الميتة كذلك يخرج الأحياء منها يوم القيامة.

قال الإمام الغزالى:لنتأمل كيف كانت الأرض ميتة ، فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من عجائب النبات. ثم أنظركيف أودع الحياة تحتها ففجر العيون وأسال الأنهار تجرى على وجهها،وأخرج من الحجارة اليابسة ومن التراب الكدر ماء رقيقا عذبا زلالا ،

---

(١) النحل ٦٥

(٢) الزخرف ١١

(٣) الكشاف، جـ٣، ص ٥٠٩.

(٤) النكت فى اعجاز القرآن للرمانى، ص٨٩،ضمن ثلاث رسائل، دار المعارف، تحقيق د. محمد خلف الله، د. محمد زغلول.ط٤.

وجعل به كل شيء حي فأخرج به فنون الأشجار والنبات، رطب وعنب وقضب وزيتون ونخل ورمان وفواكه كثيرة، لاتحصى مختلفة الأشكال والألوان والطعوم والصفات والأراييح، يفضل بعضها على بعض فى الأكل، تسقى بماء واحد ، وتخرج من أرض واحدة . فإن قلت إن اختلافها باختلاف بذورها وأصولها، فمتى كان فى النواة نخلة مطوقة بعناقيد الرطب. ومتى كان فى حبة واحدة سبع سنابل ، فى كل سنبلة مائة حبة.ثم أنظرإلى أرض البوادى وفتش ظاهرها وباطنها فتراه ترابا متشابها فإذا أُنزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، ألوانا مختلفة ونباتا متشابها وغير متشابه، لكل واحد لون وطعم وشكل يخالف الآخر.. فانظر إلى كثرة منافع النبات وكيف أودع الله تعالى العقاقير المنافع الغريبة، فهذا نبات يغذى، وهذا نبات يقوى،وهذا يضعف، وهذا يحى، وهذا يساعد على اليقظة، فلم تنبت من الأرض ورقة ولانبتة إلا فيها منافع[1].

يقول تعالى:﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾[2].

ويقول جل شأنه: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ. ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[3]

ويقول تبارك اسمه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[4].

---

(١) احياء علوم الدين، جـ٤، ص ٤٢٥، دار الكتب العلمية بيروت،١٩٨٦م.

(٢) السجدة ٢٧.

(٣) الحج ٥-٦.

(٤) فصلت ٣٩

فهذه آيات تـــدور معانيـــها حول أن إحياء الأجسام بعد فنائها يشبه إحياء الأرض بعد موتها.

والأرض الجرز هى الأرض التى جرز نباتها أى قطع إما لعدم الماء، وإما لأنه رعى وأزيل "وبه" أى بالماء تأكل من الزرع أنعامهم ويأكلون هم من حبه[١].

أما الأرض الخاشعة: فوصفها هذا مشتق من الخشوع بمعنى التذلل فاستعير لحال الأرض إذا كانت قحطة لانبات فيها[٢].

فخشوع الأرض هنا هو سكونها قبل نزول الماء عليها، فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت. وكأنها حركة شكر على أسباب الحياة.

أما الأرض الهامدة فهى الأرض الميتة اليابسة وهى هنا وصفت بالاهتزاز والربو وهو الانتفاخ، إذا أخصبت وتزخرفت بالنبات، كأنها بمنزلة المختال فى زيه[٣].

وهذه دلالة ثانية على البعث، كما يحى الأرض الميتة الهامدة وهى المقحلة التى لاينبت فيها شيء، فإذا أنزل الله عليها المطر اهتزت وتحركت بالنبات وحييت بعد موتها وربـــت أي ارتفعت، ثم أنبتت مافيها من الألوان والفنون من ثمار وزروع وأشتات النباتات فى اختلاف ألوانها وطعومها وروائحها ولهذا قال تعالى :وأنبتت من كل زوج بهيج أى حسن المنظر طيب الريح[٤].

---

(١) الكشاف، جـ٣، ص ٢٤٧

(٢) المصدر نفسه جـ٣ ص ٤٥٤

(٣) نفس المصدر، جـ٣، ٤٥٤ ومابعدها.

(٤) ابن كثير ج٣، ص ٢١٤.

لقد عبر القرآن عن الأرض قبل نزول الماء، وقبل تفتحها بالنبات، مرة بأنها هامدة، ومرة بأنها خاشعة،وقد يفهم البعض أن هذا مجرد تنويع فى التعبير. فلننظر كيف وردت هاتان الصورتان.

لقد وردتا فى سياقين مختلفين، وعند التأمل السريع فى هذين السياقين يتبين وجه التناسق فى هامدة وخاشعة،إن الجو فى السياق الأول جو بعث وإحياء واخراج. مما يتسق معه تصوير الأرض بأنها هامدة، ثم تهتز وتربو وتنبت من كل زوج بهيج. وإن الجو فى السياق الثانى جو عبادة وخشوع وسجود يتفق معه تصوير الأرض بأنها خاشعة، فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت. ثم لا يزيد على الاهتزاز والإرباء هنا الانبات والإخراج كما زاد هناك لانه لا محل لهما فى جو العبادة والسجود.

ويحسن أن نلاحظ أن الهمود والخشوع يتحدان فى المعنى العام، ويستدل بهما فى الآيتين على قدرة الخالق على البعث،فما هما إلا سكون أو خمود تعقبه الحركة والحياة ، فلو كان المقصود هو مجرد أداء المعنى الذهنى، لما كانت هناك ضرورة لهذا التنويع، ولكن التعبير القرآنى لايرمى إلى مجرد أداء المعنى الذهنى، إنما يريد الصورة كذلك،والصورة تقتضى هذا التنويع.. ودلالة هذا التنويع حاسمة فى أن التصوير عنصر أساسى فى أسلوب القرآن ، وأن التعبير لاينتهى إلى أداء المعنى الذهنى مجردا، إنما ينبض بطبيعته بصور حية للمعانى[1].

ولكننا إذا تعمقنا الآيتين سوف نضع أيدينا على فرق آخر بين كلمتى "هامدة وخاشعة" يتمثل فى أن الآية التى وردت فى سياقها كلمة "خاشعة" مكية والآية التى وردت فى سياقها كلمة "هامدة" مدنية، فكأن الله تعالى يخاطب أهل مكة المعاندين الجاحدين ويقول لهم، إن هذه الأرض التى خلقناكم منها والتى جعلنا حياتكم بحياتها ، تعبدنى وتخشع لى،

(١) التصوير الفنى فى القرآن،ص ٩٨ وما بعدها. بتصرف

وأنتم لاتخشعون ولاتخافون الذى يقدر على إماتتكم ثم بعثكم مرة ثانية. أما أهل المدينة فلم يوجه لهم هذا الخطاب لأنهم أهل عبادة وتقوى.

إنها آيات "ترد على منكرى البعث ردا فيه منطق وإقناع وتوبيخ وهو منطق مشحون بطاقات العبر الحية والمواعظ البليغة التى تتجاوز نطاق المعانى الأولى المفهومة من مجرد الكلمات، ومن ثم تجيء الآية لونا جديدا من التعبير يتسم بالحركة، وتدب فيه الحياة وتصاحبه أنماط عميقة من التفكير تتطلب من الإنسان أن يعيد النظر فى أمر نفسه وفى أمر عقيدته وفى أمر الحياة وماوراءها[1].

(١) المعانى الثانية فى الأسلوب القرآنى. د. فتحى عامر، ص٣٠٤، منشأة معارف الاسكندرية.

الفصل الثالث

النبات بين الحياة والموت

أولا: فى القرآن المكى.

ثانيا : فى القرآن المدنى.

آيات للكمبيوتر

الفصل الثالث

النبات بين الحياة والموت

أولا: فى القـــرآن المكـــى

ليس من شك فى أن مكة المكرمة أهم مواضع الحضر فى الحجاز وأنها ربما ترجع فى نشأتها الأولى إلى عهد الخليل وولده إسماعيل عليهما السلام. ومن ثم أطلق عليها القرآن عدة أسماء منها بكة، وأم القرى، والبلد، والبلد الأمين. وهى أسماء تدل على عظم مكانة مكة بين مدن الحجاز. هذا بالإضافة إلى أنها تضم بيت الله الحرام أول بيت وضع للناس فيه الهدى والبركة والخير العميم. ومن هذا البلد انطلقت الدعوة الإسلامية غازية جميع أقطار الأرض،وإليه يحج المسلمون وافدين من مشارق الأرض ومغاربها. وصدق الله العظيم حيث يقول: وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ[1].

ولقد حباها الله تعالى بموقع جغرافى جعلها ملتقى القوافل التى ترد من اليمن تريد الشام والتى تأتى من الشام تريد اليمن. حتى إذا كان القرن السادس الميلادى نجح القرشيون فى احتكار التجارة فى بلاد العرب، فضلا عن السيطرة على طرق القوافل التى تربط اليمن بالشام من ناحية وبالعراق من ناحية أخرى[2].

وأهل مكة لم يكونوا زراعا يرتبطون بالأرض، كما لم يكونوا صناعا، إنما كانوا أقواما غلبت عليهم البداوة وعاش أكثرهم عيشة الارتحال. ولذا كانت التجارة تعويضا لهم عن فقر بيئتهم إلى الطعام بسبب قلة المياه، بالإضافة إلى توفير الطعام للحجيج فى منطقة فقيرة نباتيا.

---

(١) الحج ٢٧

(٢) تاريخ العرب القديم. د. محمد بيومى مهران، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ١٩٨٩، ص ٤١٧.

وكان سكان مكة فى ذلك العصر يأتلفون من طبقات ثلاث "طبقة لها كل الحقوق: وهى قريش تستند حقوقها إلى ماكانت ترى من شرف أصولها أولا ومن أنها صاحبة البيت ثانيا.... وتأتى بعدها طبقة أخرى هى طبقة الحلفاء وهم ناس من العرب على اختلاف قبائلهم آووا إلى مكة ليأمنوا فيها، وناس من العرب آخرون تسامعوا بغنى قريش ودعة الحياة فى مكة فأقبلوا يبتغون فضلا من رزق.

وطبقة ثالثة: هى الرقيق الذى لاحق له حتى فى نفسه، يملكه سيده كما يملك مافى بيته من أداة ويسخره فيما يريد من أمره كما يشاء.. ومن الطبيعى أن أغنياء قريش وأهل الطبقة المتوسطة منهم لم يكونوايعملون إلا فى التجارة، فكان الرقيق يكفونهم حاجاتهم اليومية: يرعون عليهم ماكانوا يملكون من الإبل والغنم، ويعنون بما كانوا يملكون من الخيل،ويعملون فيما كانوا يملكون من الأرض خارج مكة فى الطائف أو فى غيرها..

ولكن قريشا على ذلك كانت تسكن قرية فى واد غير ذى زرع، قرية منقطعة انقطاعا تاما عن البلاد المتحضرة[٢]..

ومن ثم كان من العرب فريق ينعم بالثراء والترف وفريق يعانى مرارة البؤس والفقر. ومع ذلك كان أثرياء العرب قلة إذا قيسوا بالفقراء الذين كانوا يؤلفون سواد العرب.

من هنا كان جل اعتمادهم فى حياتهم الإقتصادية على التجارة التى ألفوها وأصبحت حياتهم لاتقوم بدونها، وخاطبهم القرآن الكريم خطابا والاً على ذلك، إذ يقول تعالى: لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ.إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ. فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ. الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ[٣].

(١) تاريخ العرب القديم، د. محمد بيومى مهران، دار المعرفةالجامعية، الاسكندرية ١٩٨٩، ص ٤١٧

(٢) د. طه حسين.مرآة الإسلام. دار المعارف، ط٧، ص ١٧-١٩ تبصرف

(٣) سورة قريش

حيث تعلقت نفوس أهل مكة بالرحيل لاستدرارمادة الرزق ولو نزلت مكانة البيت من نفوس العرب ونقصت حرمته عندهم، واستطالت الأيدى بالتعدى على سفارهم لنفروا من تلك الرحلات وكرهتها نفوسهم فقلت وسائل الكسب بينهم لأن أرضهم ليست بذات زرع، وماهم بأهل صناعة مشهورة يحتاج الناس إليها فيأتونهم، ليأخذوا منها. فكانت تضيق عليهم مسالك الرزق، وتنقطع عنهم ينابيع الخير.. فعليهم أن يعبدوا رب هذا البيت الذى أوسع لهم من الرزق ولولا ذلك لكانوا فى جوع وضنك عيش..[١].

وهى آيات أستطيع من خلالها أن أفهم الدافع الذى كمن وراء ظاهرة الوأد أو قتل البنات التى كانت منتشرة فى الجاهلية[٢]، وهى الظاهرة التى وصفها القرآن الكريم فى أكثر من آية.يقول تعالى: وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْأً كَبِيرًا[٣].

ويقول تبارك اسمه فى سورة الأنعام:

وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ[٤].

قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ[٥].

وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ[٦]

---

(١) تفسير جزء عم للامام محمد عبده، ص ١٨٣ وما بعدها دار ابن زيدون ، بيروت ط٢، ١٩٨٩.

(٢) لم يكن وأد البنات عاما فى جميع القبائل، وانما كان خاصا ببعض القبائل مثل تميم وأسد.

(٣) الاسراء ٣١

(٤) الآية ١٣٧ الأنعام

(٥) الآية ١٤٠ الأنعام

(٦) الآية ١٥١ الأنعام

ويقول عز من قائل فى سورة النحل:

وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ[1].

فالخوف من توقع الفقر عند الأغنياء أو الرغبة فى التخفف من الفقر عند الفقراء كان دافعا إلى الوأد، ذلك لأن بلاد العرب كانت شحيحة بالزاد والخير، وكثيرا ما انتابها القحط والجدب، وقاسى سكانها مرارة الجوع بسبب الجفاف. وظاهرةوأد البنات بالذات كانت شائعة عند العرب،لأن ولادة البنت مع الفقر أو مع توقعه تعتبر نكبة على الأب الجاهلى، أما الصبيان فكان يرجى نفعهم، فلا ضرر من الإبقاء عليهم مع الفقر والفاقة لأنهم كانوا أقدر على الكسب من الإناث.

وظاهر الآيات يوحى أنهم كانوا يئدون بناتهم ، لأنهم كانوا فقراء وأن الفقر تمكن منهم لدرجة جعلتهم لايستطيعون تربية أولادهم. وهذا من الأوضاع السقيمة التى استقرت على مر الأجيال، وتوارثها هذا البلد ولدا عن ولد وطبقة فى إثر طبقة[2].

وعندما نزل القرآن بدأ يوضح لهم أن الله تعالى أرحم بعباده من الوالد بولده، لأنه نهى عن قتل الأولاد كما أوصى الآباء بالأولاد، وكان أهل الجاهلية يقتلون بناتهم لئلا تكثر عيلتهن فنهـــى الله تعالى عن ذلك[3] وكان كذلك لابد وأن يغير من هذه الأوضاع التى لاتحفـظ حياة الإنســان، فأكد سبحانه قضية الرزق وأنه أي الرزق بيده تعالى فهو الذى قدر أقوات البشر.

يقول تعالى: وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ[4].

---

(١) الآيات ٥٨-٥٩

(٢) التفسير البيانى جـ١، ص ١٨٥.

(٣) ابن كثير جـ٣، ص ٣٨ وما بعدها

(٤) فصلت ١٠

ويقول جل شأنه: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾[١].

ويقول: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[٢].

والدابة كل نفس دبت على وجه الأرض عقلت أو لم تعقل لاتطيق أن تحمل رزقها لضعفها عن حمله لايرزقها إلا الله ولايرزقكم أيها الأقوياء إلا هو،وإن كنتم مطيقين لحمل أرزاقكم وكسبها لأنه لو لم يقدركم ويقدر لكم الكسب لكنتم أعجز من الدواب التى لاتحمل[٣].

فمدلول الرزق أوسع مدى وأقدم عهدا وأعمق جذورا مما يتبادر إلى الذهن عند سماع هذه الكلمة لأن مرد كل صغيرة وكبيرة فيه إلى قدرة الله. إنها آيات يجب على الناس التفكير فيها لأنهم إن آمنوا بالله واتقوه لرزقهم كما يرزق الطير تخرج جائعة وتعود قانعة.

ولكن ما علاقة الرزق بالنبات؟ يقتضى منى الحديث عن هذا، لفتة إلى معنى كلمة الرزق حتى أقع على هذه العلاقة.

يقول صاحب روح المعانى: الرزق لغة الإعطاء لما ينتفع به الحيوان. واختلف المتكلمون فى معناه شرعا، فالمعول عليه عند الأشاعرة ماساقه الله إلى الحيوان، فانتفع به من المطعومات أو المشروبات أو الملبوسات، وغير ذلك والمشهور أنه اسم لما يسوقه الله تعالى إلى الحيوان ليتغذى به[٤].

---

(١) هود ٦

(٢) العنكبوت ٦٠

(٣) الكشاف جـ٣، ص ٢١١.

(٤) روح المعانى جـ١، ص ١١٧، دار احياء التراث بيروت، ط٤، ١٩٨٥م.

من هذا التفسير لكلمة الرزق يتضح أن العلاقة بين الـــرزق والنبات علاقة مباشرة فعلى أي شيء يتغذى كل كائن حي؟! ولذا لم يكن غريبا أن يوضح القرآن هذا لأهل مكة حتى يعرفهم بحقيقـــة رزقهم وأنه بيد الله تعالى، مازجـــا ذلك بقدرتـــه تعالى على البعث مرة أخرى، حيث كانوا ينكرون البعث بعد الموت. وهذا ماسوف أتحدث عنه فى فصل النبات فى الأمثال القرآنية.

يقول تعالـــى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَـــةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ. وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَـــابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ. لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْـــكُرُونَ. سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَـــا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِـــهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

أى إذا كانت الأرض ميتة هامدة لاشيء فيها من النبات فإذا أنزل الله عليها الماء أنبتت من كل زوج بهيج، وبهذا جعلها رزقا لهم ولأنعامهم. ولما امتن على خلقه بإيجاد الزروع عطف بذكر الثمار وتنوعها وأصنافها.

وفى قوله تعالى: فمنه يأكلون دلالة على أن الحب هو الشيء الذى يتعلق به معظم العيش ويقوم بالارتزاق منه صلاح الإنسى، وإذاقل جاء القحط ووقع الضر، وإذا فقد جاء الهلاك ونزل البلاء. وفى قوله تعالى: ثمره معنى ليأكلوا مما خلق الله من الثمر وما عملته أيديهم من الغرس والسقى إلى أن بلغ الثمر منتهاه[2].

وفى الآية تنبيه لأهل مكة على احياء الموتى وتذكير لهم بتوحيده وكمال قدرته بالأرض الميتة التى أحياها بالنبات واخراج الحب منها[3].

---

(١) يس ٣٣-٣٦.

(٢) الكشاف جـ٣، ص ٣٢١.

(٣) أحكام القرطبى جـ١٥، ص ٢٥.

وبعد هذه اللمسة الرفيعة يلتفت للتسبيح بحمده ،الذى أطلع لهم النبت وجعل الزرع أزواجا كالناس، فقد خلق الله الحياة أزواجا النبات فيها كالإنسان.

يقول تعالى مخاطبا أهل مكة: وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ[١].

ويقول: أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ. إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ[٢].

ويقول جل شأنه: وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ. وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ. وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ[٣].

فارتباط النبات بالرزق ظاهر العلاقة فى الآيات. وكأن الله يقول لهم: لاتظنوا أنكم أنتم الرازقون ولكن نحن نرزقكم من نبات هذه الأرض الذى بدونه لاتقوم لكم حياة. "إنها ثورة قرآنية على هذه الأوضاع الظالمة التى نشأت عن غرور القادرين وطغيان أصحاب المال فى هذا البلد. فليس ما كان المجتمع المكى يعانيه من مآسى الرق ومن التصدع الطبقى إلا أثرا لطغيان هذا الإنسان الذى غرته قوته فاستعبد مخلوقين مثله[٤].

ولاتقتصر دلالات النبات فى مكة على الرزق، وإنما هناك دلالات أخر للنبات مثل، اتخاذه وسيلة لتهديد أهل مكة من منطلق أنه لاحياة لهم بدونه، ودورهم فى هذا الزرع الذى

---

(١) النحل ١٣.

(٢) الشعراء ٧-٨

(٣) الحجر ١٩-٢١

(٤) التفسير البيانى جـ١، ص ١٨٥.

يرونه نباتا بين أيديهم ويؤتى ثماره التى عليها معيشتهم لايتعدى الحرث وإلقاء الحب والبذور التى صنعها الله، وبعد ذلك تتولى القدرة الإلهية رعايته حتى يثمر.

يقول تعالى: أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ. أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ. لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ. إِنَّا لَمُغْرَمُونَ. بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ[1].

أي أخبرونى عما تحرثون من أرضكم فتطرحون فيها البذر أأنتم تنبتونه وتحصلونه زرعا فيكون فيه السنبل والحب أم نحن نفعل ذلك؟ وإنما منكم البذر وشق الأرض، فإذا أقررتم بأن إخراج السنبل من الحب ليس إليكم، فكيف تنكرون إخراج الأموات من الأرض وإعادتهم؟ وأضاف الحرث إليهم والزرع إليه تعالى، لأن الحرث فعلهم ويجرى على اختيارهم والزرع من فعل الله تعالى وينبت على اختياره لاعلى اختيارهم.. قال الماوردى وتتضمن هذه الآيات أمرين، أحدهما: الإمتنان عليهم بأن أنبت زرعهم حتى عاشوا به ليشكروه على نعمته عليهم. والثانى البرهان الموجب للإعتبار، لأنه لما أنبت زرعهم بعد تلاشى بذوره، وانتقاله إلى استواء حاله حتى صار زرعا أخضر، ثم جعله قويا مشتدا أضعاف ماكان عليه فهو بإعادة من أمات أخف عليه وأقدر وفى هذا البرهان مقنع لذوى الفطرالسليمة. ثم قال (لو نشاء لجعلناه حطاما) أى متكسرا يعنى الزرع. والحطام الهشيم الهالك الذى لا ينتفع به فى مطعم ولاغذاء، وهو بذلك نبه على وجوب شكره تعالى، وعلى اعتبارهم بذلك[2].لأنه لوجعله هكذا لظلوا يتفكهون فى المقالة ينوعون كلامهم، فتارة يقولون إنهم مجدودون لاحظ لهم حزنا على مافاتهم من زرعهم وتارة يقولون: إنهم لملقون للشر لاينبت لهم مال[3].

وكأن الله جل ثناؤه يقول: إنهم مع كل مايرون من آيات الحق يتمادون فى العتو والطغيان. وحتى لو كان الرزق موجودا وفى متناول أيديهم وطعم منه أحدهم وأصبحت اللقمة

---

(١) الواقعة ٦٢-٦٦.

(٢) القرطبى جـ١٧، ص ٢١٧وما بعدها بتصرف

(٣) الكشاف جـ٤، ص ٥٧، وابن كثير جـ٤، ص ٢٩٦

فى فمه وأمسك الله عنه قدرة الإبتلاع لعجز أهل السموات والأرض على أن يعيدوا إليه تلك القدرة. إن كل شىء بيد الله رزقا وغير رزق وكل ماينبغى، أن ينيبوا إليه ويدخلوا فى دينه ولكن عنادهم أعماهم فلم يؤدوا لربهم مايستحق من شكر بما رزقهم به صباح مسا ء. وهو يمزج ذلك بتهديدهم وبيان قدرته التى صورها فى الآيات السالفة كى يعرفوا أنه الرازق الذى يستطيع أن يعصف بهم ويمزقهم شر ممزق [١].

وحياة كل كائن حى كما ذكرت قائمة على النبات ومن هذه الكائنات الحية الأنعام التى ذكر طعامها مقرونا بطعام الإنسان،ـالذى يتغذى عليها. وهم كانوا أهل رعى أكثر منهم أهل زراعة. ومن ثم فالأنعام تشكل عندهم حرفة لا يمكن الاستغناء عنها يقول تعالى:

فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ. أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا. فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا. وَعِنَبًا وَقَضْبًا. وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا. وَحَدَائِقَ غُلْبًا. وَفَاكِهَةً وَأَبًّا. مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ [٢].

فالقضب والأب هو ما أنبتت الأرض مما يأكله الدواب ولا يأكله الناس[٣]. وقد أوجب سبحانه على نفسه مختارا أن يرزق هذا الحشد الهائل الذى يدب على هذه الأرض فأودع هذه المخلوقات القدرة على الحصول على رزقها من هذا المودع فى الأرض فى صورة من صوره[٤]. والأنعام من بين هذه المخلوقات وسخرها الله تعالى لخدمة الإنسان ومنفعته، نلمح هذه الفائدة فى بعض أي الذكر الحكيم.

يقول تعالى: وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ. وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ. وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ. وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ [٥].

(١) سورة الرحمن وسور قصار ص ٢١٧.
(٢) عبس ٢٤-٣٢.
(٣) ابن كثير جـ٤، ص ٤٧٢.
(٤) فى ظلال القرآن جـ١٢، ص ١٨٥٦.
(٥) النحل ٤-٧.

ويقول تبارك اسمه: وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ[١].

ويقول جل شأنه: وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ[٢].

ويقول تعالى فى النحل وهو مما يتغذى على النبات ويتخذ منه مساكن له ويفيد منه الإنسان فائدة عظمى:

وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ. ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ[٣].

فمن قبيل العناية الإلهية خلق سبحانه الأرض وقدر فيها أرزاق الأنعام بجانب أرزاق الإنسان. وهى من أرزاق الانسان: وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا. أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا. وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ[٤].

إن الدلالات النباتية فى القرآن كثيرة ومتنوعة، وتمتد لتشمل جوانب الحياة كلها، فكل كائن حى تقوم حياته على هذا الكائن الحى، وأهل مكة كانوا بحاجة لبيان هذا الأمر.

---

(١) النحل ٦٦.

(٢) النحل ٨٠

(٣) النحل ٦٨-٦٩

(٤) النازعات ٣١-٣٣.

ومن هذه الدلالات النباتية التى خاطبت عقول أولئك القوم الظل. ونحن نعلم أنهم قوم يعيشون فى صحراء جرداء تندر فيهاالأشجار التى تقيهم حر الشمس، أو يجدونها فى طريقهم أثناء رحلاتهم التجارية، فينشدون الراحة فى أفيائها، وكذلك أثناء رعيهم إبلهم فى الصحراء. لذلك أبرز القرآن أهمية الظل، ترغيبا لهم فى الدين الجديد، وإظهارا لقدرة الله تعالى.

يقول تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾[1].

ويقول جل شأنه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا. ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾[2].

والمراد بالظل "مايكون من مقابلة كثيف كجبل أو بناء أو شجر للشمس عند ابتداء طلوعها. والمعنى ألم تنظر الى صنع ربك كيف أنشأ ظلا عند ابتداء طلوع الشمس ممتدا إلى ماشاء الله عز وجل.. ولاريب فى أن المراد تنبيه الناس على عظيم قدرةالله عز وجل وبالغ حكمته فيما يشاهدونه.

وقوله تعالى: ولو شاء لجعله ساكنا أى ولو شاء جعله ثابتا على حاله ظلا أبدا وذلك بأن لايجعل سبحانه للشمس على نسخه سبيلا. وقوله ثم جعلنا الشمس عليه دليلا أى ثم جعلنا طلوع الشمس دليلا على ظهوره للحس فإن الناظر إلى الجسم حال قيام الظل عليه لايظهر له شيء سوى الجسم ولونه ثم إذا طلعت الشمس ووقع ضوؤها على الجسم ظهر له أن الظل كيفية زائدة على الجسم ولونه"ثم قبضناه إلينا قبضا يسيراً" أى ثم أزلناه بعدما أنشأناه ممتدا[3].

---

(١) النحل ٨١.

(٢) الفرقان ٤٥-٤٦.

(٣) روح المعانى، جـ١٩، ص ٢٦-٢٨ بتصرف.

وفى ذلك كله دلالة على بيان قدرته تعالى على خلق الأشياء المتضادة المختلفة. والعرب أعرف الناس بقيمة الظل لأنهم يعيشون فى صحراء مقفرة خالية من الأشجار التى تمدهم به. "وهو مشهد لايخلو من جمال يغرى الخيال بالجولات. وكم فى المشاهد المألوفة المكرورة مايبدو جديدا كأنما تتمـــلاه العين حين تتجه إليه بالحس الشاعر المتفتح والعين المتيقظة للألوان[١].

والذى يدلنا على أهمية الظل والشجر عند العرب أنه "ذكر الحر فى الآية ولم يذكر البرد لأن الوقاية من الحر أهم عندهم وقلما يهمهم البرد لكونه يسيرا محتملا[٢].

إنه لتعبير قرآنى يرسم للظل مشهدا إذ تمده يد الله تعالى فى رفق وتقبضه فى لطف.

ومن دلالات الصورة النباتية فى القرآن عند العرب فى مكة النار، حيث كان للعرب "شجرتان: إحداهما المرخ والأخرى العفار إذا أخذ منهما غصنان أخضران فحك أحدهما بالأخر تباين من بينهما شرار النار[٣].

ألم تكن هاتان الشجرتان من النبات الذى نحن بصدده؟ على أن هناك لفتة أخرى فى ذكر شجرة النار فمن احتكاك فرع من شجرة بفرع آخر من شجرة أخرى كان العرب يوقدون نارهم على الطريقة البدائية التى لاتزال مستعملة فى بعض البيئات حتى الآن.

يقول تعالى: أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ. أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ. نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ. فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ[٤].

والله تعالى جعل هذه النار تذكرة على النار الكبرى هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى متاعا للمقوين لأن الحاضر والبادى الجميع محتاجون إليها للطبخ والإصـــطلاء والإضـــاءة

(١) التصوير الفنى، ص ٦١.
(٢) الكشاف جـ٢، ص ٤٢٣.
(٣) ابن كثير جـ٤، ٢٩٦.
(٤) الواقعة ٧١-٧٣.

وغيرها من المنافع. ثم من لطف الله تعالى أن أودعها فى الأحجـــار وخالـص الحديـــد بحيـــث يتمكن المسافر من حمل ذلك فى متاعه وبين ثيابه فإذااحتاج إلى ذلك فى منزله أخرج زنده وأوقد نارا فأطبخ بها واصطلى بهاواشتوى واستأنس بها وانتفع بها سائر الانتفاعات فلهذا أُفرد المسافرون، وإن كان ذلك عاما فى حق الناس كلهم. فسبح باسم ربك العظيم أى الذى بقدرته خلق الأشياء المتضادة مثل النار المحرقة التى فيها مصلحة للعباد فى معاش دنياهم وزجر لهم فى المعاد[١].

وإذا كنا نحن بوصفنا نعيش عصور التقدم لم نر هاتين الشجرتين فلنا أن نتخيل كيف كان العرب يأخذون منهما الأغصان ليشعلوا نيرانهم وكيف يكون احتكاك الغصنين وخروج النار من بينهما، آية دالة على القدرة. وكأن الله أخرج الشجرة التى تؤتى الثمار كما أخرج الشجرة التى تطهو هذه الثمار وفى ذلك حياة كل الحياة.

ودلالة أخرى من دلالات النبات فى القرآن المكى تتصل بأمر هام من أمور حياتهم، هذه الدلالة تتمثل فى الخمر، حيث كانت تصنع من العنب و النخيل. وقد نص القرآنعلى ذلك والقرآن أمعن فى وصف الواقع المكى فى ذلك الوقت. يقول تعالى: وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ[٢].

وامتدادا لأمر الواقع فى ذلك الوقت "دل على اباحته شرعا قبل تحريمه ودل على التسوية بين المسكر المتخذ من النخل ومن العنب.. وكذا حكم سائر الأشربة المتخذة من الحنطة والشعير والذرة. والرزق الحسن هو ما أحل من ثمريتهما[٣]. وأخرج مسلم عن أبى هريرة الخمر من هاتين الشجرتين وأشار إلى الكرم والنخلة[٤].

---

(١) ابن كثير جـ٤،ص ٢٩٦، ومابعدها. والقرطبى جـ١٧، ص ٢٢١، ومابعدها.
(٢) النحل٦٧.
(٣) تفسير القرآن العظيم جـ٢، ص ٥٩٢، والقرطبى جـ١٠، ص ١٢٨.
(٤) روح المعانى جـ٢، ص ١١٢.

لقد كانت معاقرة الخمر منتشرة فى المجتمع المكى منذ زمن بعيد، وتوارثها الأجيال على مر الأزمنة. ولذلك لم يكن من السهل عليهم التخلى عنها، فاحتفل القرآن بذكرها على أنهما لديهم عادة. أمافى المدنية فسوف تحرم كما سنرى.

فالطابع المكى من خلال هذه الملاحظات- طابع تركيز على جوانب العقيدة. وذلك لأنه واجه الوثنيين فكان لابدو أن يبين لهم أنهم على باطل، وذلك بأن يلفتهم إلى آيات الله فى الكون، ونعمه التى تدفعهم إلى التفكر فى مصدرها لاسيما أنها نعم ليست فى طاقتهم. ومن هنا أدرك السر فى الحديث عن النبات كثيرا فى الآيات المكية إذا ماقورنت بالآيات المدنية.

ثانيا: فى القـــرآن المدنـــى

المدينة المنورة ثانى مدن الحجاز بعد مكة، ودار الهجرة التى نصرت الإسلام فاستحقت التكريم والتخليد حتى يقوم الناس لرب العالمين. ولقد شاءت الإرادة الإلهية أن تخص المدينة بميزة حين شرفت بأن تضم فى ثراها جثمان سيد الخلق أجمعين. هذا إلى أنها البلد الذى اختاره الله ليكون أول عاصمة فى التاريخ حيث خرجت منها الجيوش تنشر التوحيد والحب والعدل والإخاء والمساواة، ومن ثم فقد كانت ومازالت وسوف تظل قلوب المومنين فى كل الأنحاء تنبض بحب المدينة وتهفو إلى زيارتها.

وقد حبت الطبيعة المدينة المقدسة بمزايا لم تعرفها مكة من طيب الهواء وجودة التربة،كما أنها لم تكن على طريق القوافل التجارية بين اليمن والشام فحسب، بل كانت واحة حقيقية ذات تربة صالحة لزراعة النخيل وهو كثير فيها. ومن ثم فقد أصبحت المدينة واحدة من أمهات المراكز الزراعية فى بلاد العرب [١].

ونظرا لأن أرض المدينـــة خصـــبة،فإن أهلـــها يختلفون عن أهل مكة من حيث ميلهم إلى الاشـــتغال بالزراعـــة وعنايتهم بغرس الأشجار المثمرة التى كانوا دائمى السعى إلى تحسين أنواعها[٢].

ومن ثم ندرك السر فى أن الله تعالى أمر رسوله بالهجرة إليها، وكذلك المسلمون الذين واجهوا صعوبة فى سبيل الحصول على مقومات حياتهم فى مكة التى سيطر على مصادر الرزق فيها سادة القوم. وكذلك ندرك السر فى تحول الصورة النباتية فى المدينـــة عنها

---

(١) د. محمد بيومى مهران: تاريخ العرب القديم، ص ٤٢٩.

(٢) المرجع السابق نفس الصفحة

في مكة. حيث أمعن القرآن المكى فى وصف النبات لكى يؤمن هؤلاء القوم المعاندون بأن هناك إلها واحدا وأن هذه الأصنام والتماثيل من صنع خيالهم. أما فى المدينة فإن الصورة تغيرت، إنهم قوم آمنوا بالله وآزوا رسوله الكريم، فهم قوم علم وهدى بأمور الحياة أكثر من أهل مكة، ولذلك لم يعد القرآن بحاجة إلى اثبات أشياء عقلوها وفهموها، وهو أن لهذا الكون إلها واحدا هو الله.

لقد كان أهل مكة يستخدمون النبات فى صناعة الخمر، واستخراج النار، واطعام الأنعام، وغير ذلك من الأمور التى ترد إلى النبات بصورة مباشرة. كذلك انقسم المجتمع فى مكة إلى سادة وعبيد، السادة يتحكمون فى العبيد ويسخرونهم لقضاء حوائجهم.

كل هذا لابد أن يتغير فى المجتمع الجديد، الذى هاجر إليه الرسول صلى الله عليه وسلم ليؤسس حياة جديدة مليئة بالعدل والمساواة بين الناس. فبدلامن أن ينقسم المجتمع إلى سادة وعبيد، انقسم إلى طبقتين أخريين تؤمن كلتا هما بالله ورسوله، طبقة الأنصار وهم أهل المدينة الأغنياء الذين يمتلكون الأراضى ويزرعونها ويعيشون على ماتنتجه لهم من فواكه وثمار.والطبقة الثانية هى طبقة المهاجرين الذين تركوا كل شىء فى مكة، و هاجروا فى سبيل الله ورسوله، وبالتالى أصبحوا بحاجة إلى أن يعيشوا مثلما يعيش أهل الأرض التى هاجروا اليها.

لقد تحول الحديث عن النبات من الوصف والتفصيل الى أمور أخرى قائمة عليه، أمور يعيش عليها بشر غير الذين يمتلكون الأرض، هذه الأمور تتمثل في الزكاة والإنفاق، والصدقة، والصوم، وهى أمور لم تكن موجودة فى المجتمع المكى الذى لم يكن مهيأ لتقبلها، وكذلك تحولت الصورة لتعطى دلالات أخر تتعلق بأمور كانت موجودة فى المجتمع المكى، ويجب أن تتغير فى المجتمع المدنى لأنها لاتلائمه ولاتساير طبيعة الحياة التى تقوم على العمل لأجل الجماعة كان موجودا بالمجتمع المكى الخمر التى تذهب العقل وهى كما نرى لم تعد صالحة للمجتمع المدنى الجديد. وذلك لأن الإسلام دعا إلى العمل الجاد لأن الإنسان لابد أن يعمل وينشط، فالرزق يلتمس ويطلب، وكلما جد الإنسان فى طلبه كان أكثر

حصولا عليه واستمتاعا به، فلاحظ منه لكسول يقضى وقته فى سكر ومجون، والحظ منه قليل لعابد غير الله الرازق.

وتحت طبقتى المهاجرين والأنصار انقسم المجتمع المدنى إلى عدة طبقات،فأصبح هناك فقراء ومساكين، وأصبح هناك محاربون غزاة فى سبيل الله وأصبح هناك عاملون لحساب الدولة الجديدة، وعاملون فى المساجد، وأصبح هناك متقاعدون بسبب الحرب. فكان لابد من قوانين جديدة تضمن لهذه الطبقات سبل الحياة مثل غيرهم. فالظروف الإجتماعية تشاء أن تتعدد الطبقات فى كل مجتمع مابين غنى وفقير، فلابد من رباط وثيق لجمع تلك الطوائف بعضها إلى بعض ويكون عاملا عاما للمساواة الاجتماعية حتى تتحقق العدالة فى ميزان الجماعة، ويعيش الناس إخوانامتحابين تحت لواء الإسلام.

لقد بدأ الإسلام هذه الأمور بالزكاة، بل جعلت الركن الثالث من أركان الإسلام، من باب إدراك أن الإعطاء من رزق الله تعالى ماهو إلا غرس للعادات النبيلة فى نفوس البشر، و تخليص لها من الشح ودمج للمشاعر والطاقات الإنسانية فى طريق الخير. بل إدراك أن المسلم الذى يتعود إخراج زكاة زرعه كلما حصد يصبح الإعطاء صفة أصيلة من صفاته ومن ثم كان هذا الخلق من أوصاف المؤمنين المتقين فى نظر القرآن.

ولاتقتصر الزكاة على زكاة الزروع وإنما هناك زكوات أخر مثل زكاة النقدين الذهب والفضة وزكاة النعم وغير ذلك.

يقول تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾[1].

ويقول جل شأنه: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[2].

---

(١) البقرة ٤٣

(٢) البقرة ١١٠

ويقول تبارك اسمه: لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ[1].

ووراء هذا الغرض الدينى معان كثيرة وكلها بسبيل من ضمان التوازن للحياة الاجتماعية نذكر منها "بالنسبة للغير من الأفراد الذين لم تمكنهم ظروف الحياة من الوصول إلى مستوى لقمة العيش وستر البدن تجيء الزكاة بلسما شافيا من أمراض الحقد والكراهية والإستياء... وبالنسبة للمجتمع تهيء الزكاة سبل الكرامة الإنسانية لكل عضو من أعضائه ومن ثم يتوافر الجهد الذى يبذل فى مصالح الناس المشتركة[2].

ومن خلال هذه المعانى التى تنبض فى نسق الآيات الواردة فى شأن الزكاة نعلم لماذا كثر الحديث عنها فى القرآن ، والسر فى هذا التكرار ولماذا كانت الزكاة تالية للصلاة فى الذكر. ففى الزكاة من المعانى والأفكار مايشغل حيز كتاب ، لأنها نظام اقتصادى قائم على أسس من تطهير النفس ومعرفة شاملة لغرائز الأثرة والإيثار فى الطبيعة البشرية. ولن تسعفنى تلك الصفحات لابراز ما فى هذا الركن من أركان الإسلام من دعائم وأسس خشية أن يخرج بى ذلك عن طبيعة البحث وهدفه.

ومن حكمة الله تعالى أن يجعل الزكاة تؤدي في وقت يشعر فيه المحتاجون بحاجتهم إليها ، هذا الوقت هو شهر رمضان الذى يألف من خلاله الصائم عادات الشفقة والرحمة الداعيتين إلى البذل والصدقة، فالصائم عندما يجوع يتذكر من لايجد قوتا من أولئك البائسين فيرق قلبه لهم ويشفق عليهم وفى ذلك تكافل للأمة وشعور بالأخوة الدينية. وفيه المساواة بين الأغنياء والفقراء والملوك والسوقة فى أداء فريضة دينية فى وقت واحد.

---

(١) البقرة ١٧٧

(٢) المعانى الثانية فى الأسلوب القرآنى. د. فتحى عامر، ص ١٨٢ ، ومابعدها بتصرف، منشأة معارف اسكندرية، بدون تاريخ.

يقول تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ. أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ. شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ[١].

والله تعالى يوجه خطابه للمؤمنين من هذه الأمة آمرا لهم بالصيام. والصيام هو الإمساك عن الطعام والشراب بنية خالصة لله عز وجل لما فيه من زكاة للنفوس وطهارتها وتنقيتها من الأخلاق الرذيلة[٢]

فالصوم بذلك يكون من التكاليف الإيمانية التى حددت صور التعامل بالمال فى المجتمع الإسلامى، وما كان الإسلام ليتعرض لهذه الأحكام فى مكة لأنه لم يكن هناك المجتمع الإسلامى الذى يتطلبها من هنا كان الصوم تاليا للزكاة فى أركان الإسلام الخمسة.

ومن الأمور التى فرضت بالمدينة وهى متصلة بالزكاة الانفاق ولكنه ليس بديلا عنها وهى كذلك ليست بديلة عنه، إنما الزكاة ضريبة مفروضة والإنفاق تطوع طليق.

وورود آيات قرآنية كثيرة فى الانفاق يعنى أن الانفاق فى مثل هذه الظروف التى يعيشها المسلمون فى المدينة، والتى أشرت اليها من قبل كان ضرورة لقيام الجماعة المسلمة فى وجه الصعاب ثم هو ضرورة من ناحية التضامن بين الجماعة وازالة الفوارق الشعورية، وهذا أمر له قيمته فى قيام الجماعة شعوريا إذا كان سد الحاجة له قيمته فى قيامها عمليا[٣].

---

(١) البقرة ١٨٣-١٨٥

(٢) ابن كثير جـ١، ص ٢١٣.

(٣) فى ظلال القرآن جـ٢، ص ٢٢١

يقول تعالى: الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ[١].

ويقول جل شأنه: وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ[٢].

ويقول: يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ[٣].

ويقول تبارك اسمه: الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلاَ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ. قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ[٤].

ويقول: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلاَ تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ[٥].

ويقول عز من قائل: لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ. لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ[٦].

---

(١) البقرة ٣

(٢) البقرة ١٩٥

(٣) البقرة ٢١٥

(٤) البقرة ٢٦٢-٢٦٣.

(٥) البقرة ٢٦٧

(٦) البقرة ٢٧٢-٢٧٣.

من خلال الآيات التى ورد فى سياقها الانفاق يظهر أن الله تعالى كثيرا مايقرن بين الصلاة والإنفاق من المال فإن الصلاة حق الله والإنفاق هومن الإحسان إلى المخلوقين بالنفع المتعدى إليهم[١].

وهناك شروط للإنفاق منها ما يتصل اتصالا وثيقا بالنبات، وهو الشىء المنفق منه، ومنها مايتصل بالمنفق عليهم. فشرط الإنفاق المتعلق بالنبات يظهر من خلال قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ماكسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولاتيمموا الخبيث منه تنفقون..الآية.

ومعنى هذا أن الشىء المنفق لابد أن يكون من حلال طيب، ومما أخرجه الله من الأرض من زرع طيب ، والآية تعطى صورا تحدث فى المجتمع البشرى. وكانت من قبل تحدث فى مجتمع المدينة بعد أن أسس فيها الرسول صلى الله عليه وسلم دولة الإسلام "إذ كان الأنصار أيام جذاذ النخل يحضرون العذق من النخل ويعلقونه فى المسجد من أجل أن يأكل منه من يريد، والعذق هو فرع قوى من النخل يضم الكثير من الفروع الصغيرة المعلقة عليها ثمار البلح. وكان بعضهم يأتى بعذق غير ناضج أو بالحشف وهو أردأ التمر، فأراد الله أن يجنبهم هذا الموقف، حتى لايجعلوا لله مايكرهون فأنزل هذا القول الحكيم[٢].

وفى الآية وسيلة من وسائل الانفاق من عطاء الله ومما أخرجنا لكم من الأرض.

وشرطا الانفاق المتعلقان بالمنفَق عليهم أولهما: أن يكون للوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل. وأهم من هؤلاء الفقراء الذين قصد بهم جماعة حبسهم الجهاد أو العمل مرضاة لله، ولايستطيعون مشيا فى الأرض وذهابا للتكسب والتجارة، وهم أهل الصفة رضى الله عنهم." قال ابن عباس كانوا نحوا من ثلثمائة ويزيدون وينقصون من

(١) ابن كثير جـ١، ص ٤٢.

(٢) الكشاف جـ١، ص ٣٩٦ بتصرف

فقراء المهاجرين، يسكنون سقيفة المسجد، يستغرقون أوقاتهم بالتعلم والجهاد وكانوا يخرجون فى كل سرية يبعثها الرسول صلى الله عليه وسلم وعن سعيد بن جبير هم قوم أصابتهم الجراحات فى سبيل الله تعالى وصاروا زمنى، فجعل لهم فى أموال المسلمين حق[١].

والثانى من شرطى الإنفاق عدم اتباع الصدقة، بالمن والأذى، لأن " الإسلام قرر أن المال مال الله، وأن الرزق الذى فى أيدى الواجدين هو من رزق الله، وحبة القمح الواحدة، قد اشتركت فى ايجادها قوى وطاقات كونية، ليست فى مقدور الإنسان، وقس على حبة القمح نقطة الماء، وخيط الكساء وسائر الأشياء. فإذا أعطى الواجد من ماله فإنما من مال الله أعطى[٢].

وهى حالة حدثت فى المدينة، ترينا الصفحة التى خطها الأنصار فى تاريخ البذل السمح والعطاء الفياض.

إن الأسلوب القرآنى وهو بصدد الدعوة إلى الإعطاء فى سبيل الله لم يكن لينتهى عند كلمتى الزكاة والانفاق ولكن امتد ليضم لفظا آخر وإن كان داخلا ضمن هذه الدلالات القرآنية للانفاق، هذا اللفظ هو الصدقة، التى فضل الله تعالى أن يكون إخفاؤها أفضل من إظهارها حتى تبرأ من شوائب التظاهر والرياء.

يقول تعالى: إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ[٣].

ويقول عز وجل: إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ[٤].

---

(١) روح المعانى، جـ٣، ص ٤٦.
(٢) فى ظلال القرآن جـ٣، ص ٣٠٧.
(٣) البقرة ٢٧١
(٤) التوبة ٦٠

ولم يكن تركيز القرآن على وجوه الانفاق هكذا إلا لأمور أهمها: بصر الإسلام بالطبيعة البشرية، وما يخالجها من الشح بالمال، وحاجتها إلى التحريك المستمر، لتنطلق من هذا الشح، وترتفع إلى المستوى الكريم الذى يريده الله للناس. وكذلك ماكان يواجهه القرآن من هذه الطبيعة فى البيئة العربية التى اشتهرت بالكرم ولكنه كرم يقصد به الذكر والصيت[١].

وفى مقابل هذه الأشياء التى أمر الله تعالى بها فى قرآنه الكريم هناك أشياء أخرى نهى عنها تقابل هذه الأمور ولاتسير معها فى نفس اتجاهها وذلك من منطلق أنه إذا كانت تلك الأمور فيها صلاح المجتمع، وفيها حياة أفراده، فإن هذه الأشياء التى نهى عنها. وهى فى أساسها تقوم على النبات فيها فساد المجتمع وتؤدى إلى موت أفراده.

وتتمثل هذه الأشياء التى تحمل دلالات نباتية، والتى نهى القرآن فى البخل والخمر، وكذلك نهى عن أكل أصناف معينة من الحيوان. وهى أشياء لم تحرم فى القرآن المكى.

ولندع المداد يتحدث عن كل أمر منهى عنه من خلال إيراد بعض آى الذكر الحكيم.

يقول تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[٢].

قال الزمخشرى فى تفسير هذه الآية " يجعل مابخل به من الزكاة حية يطوقها فى عنقه يوم القيامة[٣].

---

(١) فى ظلال القرآن جـ٣، ص ٣١٤

(٢) آل عمران ١٨٠

(٣) الكشاف جـ١، ٤٨٤

إنه التضاد بين الزكاة والبخل لإبراز مافى هذا الركن الركين وهو الزكاة من فائدة فى الدنيا والآخرة. وإذا كان المفسرون ذهبوا إلى أن الآية فى عمومها نزلت بمناسبة دعوة اليهود إلى الوفاء بالتزاماتهم المالية الناشئة عن معاهدتهم مع الرسول صلى الله عليه وسلم ودعوتهم إلى الانفاق فى سبيل الله. فإن مدلول الآية عام، فهو يشمل اليهود كما يشمل غيرهم ممن يبخلون بما آتاهم الله من فضله، ويحسبون أن هذا البخل خير لهم يحفظ أموالهم فلا تذهب بالانفاق.

يقول تعالى: الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا[1].

فالبخيل جمود لنعمة الله، فلا تظهر عليه فى اعطائه وبذله ولهذا توعدهم بقوله وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا والكفر هو الستر فالبخيل يستر نعمة الله عليه، فهو كافر بنعمة الله[2].

أما الخمر-وكانت تصنع من النبات كما ذكرت فى القرآن المكى-فكانت معاقرتها منتشرة فى المجتمع المكى، ولكنها فى المدينة حرمت تمشيا مع سياسة الإصلاح الإجتماعى والأخلاقى. ولم يكن تحريمها أمرا مفاجئا، حيث سبقت هذا التحريم مراحل، من أجل علاج هذه التقاليد الإجتماعية المتلبسة ببعض الجوانب الاقتصادية. وكان التحريم النهائى لها فى سورة المائدة: يقول تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ. إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ[3].

---

(١) النساء ٣٧.

(٢) ابن كثير جـ١ ٤٩٦.

(٣) الآيات ٩٠-٩١

ومن دلالات التنويع فى الرزق لأن المنهج القرآنى يكثر من عرض حقيقة الرزق الذى يختص الله بمنحه للناس. نجد الحيوان الذى تحدث عنه القرآن فى الآيات المكية دون تحريم- ذكر فى القرآن المدنى وقد حرمت أنواع منه.

يقول تعالى: "حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ"[1].

ولكن ما مصدر هذا كله؟ إن مصدره النبات الذى لم يكثر ذكره فى القرآن المدنى على الرغم من أن الطبيعة النباتية فى المدينة أغنى منها فى مكة والأسباب التى تكمن وراء ذلك أن أهل المدنية قرأوا القرآن المكى وتدبروه ولذلك لم يعد القرآن بحاجة إلى ذكر ماذكر من قبل، وكذلك لأن أهل المدينة آمنوا ولم يجادلوا كثيرا، فلم يعودوا بحاجة إلى تأكيد مظاهر قدرة الله، ولكنهم أصبحوا بحاجة إلى فرض الشرائع التى تضمن لهم سبل الحياة.

ومن أمثلة الآيات التى ورد فيها النبات فى القرآن المدنى قوله تعالى: "وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ. وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ. وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ"[2].

---

(١) المائدة ٣.

(٢) الرعد ٣-٥

فهذه هى حقيقة المدينة، فهى واحة خضراء مكونة من جنات من أعناب ونخيل، ولكن إذا تدبرنا هذه الآيات وتعمقناها سوف نلاحظ أنها وإن كان نزولها بالمدينة تخاطب أهل مكة وذلك ملحوظ من الآية التى يُتعجب فيها من إنكارهم البعث، لأن أنصار المدينة لم ينكروا البعث لإيمانهم فور نزوله صلى الله عليه وسلم أرضهم.

ومن المساقات التى تبرز أهمية النبات بالنسبة لكل كائن حي فى القرآن المدنى، إطلاق لفظ الحرث، وهو كل أرض متخذة للزرع على المرأة لما بينهما من التشابه الدقيق.

يقول تعالى: نِسَاؤُكُم حَرْثٌ لَّكُم فَأْتُوا حَرْثَكُم أَنَّى شِئْتُم[١].

وإذا نحينا سبب نزول الآية جانبا نجد أن الحرث هو "إلقاء البذور فى الأرض وهنا شبه النطف بالبذور من حيث أن كلا منهما مادة لما يحصل منه ولايحسن بدونه وهوتشبيه يكنى به عن تشبيه آخر "فأتوا حرثكم" أى ماهو كالحرث ففيه إستعارة تصريحية[٢].

وفى هذا التعبير دقة، وأدق مافيه هو ذلك التشابه بين صلة الزارع بحرثه وصلة الزوج بزوجه فى هذا المجال الخاص وبين ذلك النبت الذى يخرجه الحرث وذلك النبت الذى تخرجه الزوج، وما فى كليهما من تكثير وعمران وفلاح[٣].

ومادام الحرث مثل النساء فليس عجيبا أن يصبح شهوة وقد نص القرآن على أن الحرث، وهو كما ذكرت كل أرض متخذة للغرس والزراعة. أحد الشهوات التى زينها الله للانسان.

---

(١) سورة البقرة الأية ٢٢٣

(٢) روح المعانى جـ٢، ص ١٢٤

(٣) التصوير الفنى، ص٧٧ ومابعدها.

يقول تعالى: زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ[1].

والحرث شهوة بما فيه من مشهد الإنبات والنماء وإن تفتح الحياة فى ذاته لمشهد حبيب فإذا أضيف إليه شهوة الملك كان الحرث شهوة[2].

من هنا أستطيع القول: إن معظم التكاليف التى تحمل دلالات نباتية من زكاة وانفاق وصوم وصدقة وتحريم للخمر وغيرها نزلت بالمدينة ولولا ذلك لما كان هناك فرق بين المجتمع المكى والمجتمع المدنى.

(١) آل عمران ١٤

(٢) فى ظلال القرآن جـ٣، ص ٣٧٤

الفصل الرابع

النبات بين الجنة والنار

أولا : النبات فى الجنة.

ثانيا : النبات فى النار.

آيات للكمبيوتر

الفصل الرابع

النبات بين الجنة والنار

أولا: النبات فى الجنـــة

إذا كنا تحدثنا عن النبات وأهميته للإنسان فى الحياة الأولى، فإنه يجدر بنا أن نتحدث عن أهميته للإنسان فى حياته الآخرة. فالإنسان يلزمه فيها مالزمه فى حياته الأولى لأنها حياة أيضا مثل هذه الحياة الأولى، مع فارق جوهرى هوأن الحياة الأولى حياة لفناء، أما الحياة الآخرة فهى حياة لحياة، هى حياة دائمة. والنبات فيها مثل الإنسان دائم لاينقطع على عكس نبات الحياة الأولى فهو كإنسانها فان.

وإذا كان هدف القرآن الأسمى هو الترغيب فى دخول الدين وعبادة إله واحد، فقد أولى القرآن نبات الجنة عناية خاصة ، وذلك من منطلق فقر العرب وحاجتهم إلى ماتفتقده بيئتهم الصحراوية. على ما لاحظناه فى الفصل السابق، من هذا البحث خاصة البيئة المكية.

والجنة هى دار النعيم فى الآخرة وسميت بهذا الاسم من الإجتنان وهو الستر لتكاثف أشجارها وتظليلها بالتفاف أغصانها[١].

إن لفظ الجنة مأخوذ من "الجن" وهو الستر، والجنة هى البستان الذى به شجر إذا سار فيه انسان يستره لأن به أشجارا عالية كثيفة، وليس معنى هذا أن لفظ الجنة لم يكن معروفا عند العرب، ولكن كان يقال عندهم للأرض المغطاة بالشجر والزرع جنة. ثم نقلت الجنة إلى المصطلح الإسلامى فى جنة الآخرة. وهذا هو الاستعمال الغالب للفظ الجنة فى القرآن[٢].

وإذا كان هذا هو مفهوم الجنة، فإن الرزق فيها مضمون مكفول، لايحتاج إلى كد أو طلب فى سبيل الحصول عليه، هذا الرزق الذى كان يمثل مشكلة للعرب قبل نزول القـــــرآن

---

(١) تفسير جزء عم للأستاذ محمد عبده ص ٨٥

(٢) التفسير البيانى جـ٢، ص ٦٢.

عليهم، بدليل قتلهم أولادهم. والطعام والشراب بالنسبة لأهل الجنة لايكون عن جوع وظمأ. وإنما عن مجرد الرغبة والتمتع.

يقول تعالى: وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ[1].

ويقول جل شأنه: جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا. لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا[2].

ويقول: أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ[3].

فالجنات تجرى من تحتها الأنهار، ومادامت الأنهار تجرى من تحت الجنة، فلابد أن يكون هناك نبات، ثم ثمر، وفى قوله تعالى كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابها حديث عن ثمر الجنة.. وثمر الجنة يختلف عن ثمر الدنيا، لأن الإنسان فى الدنيا يذهب إلى الثمرة ويأتى بها، أو يأتيه غيره بها. أما فى الجنة الثمر هو الذى يأتى الإنسان، بمجرد أن يشتهيه يجده، ويعتقد أن هناك تشابها بين ثمر الدنيا وثمر الجنة، ولكن ثمر الجنة ليس كثمرالدنيا، لافى طعمه ولا فى رائحته، وإنما أهل الجنة عندما يرون الثمرة يعتقدون أنها مثل ثمر الدنيا، فيجدون اختلافا فى خضرة الورق وظهور النور والثمر.

ويقول تعالى عن أهل الجنة وهم فيها خالدون وهو سبحانه وتعالى يخاطب قوما شهدوا بعض النعيم فى دنياهم من آثار نعمة عليهم، لكنهم شهدوا أيضا أن النعمة تزول عنهم أو شهدوا غيرهم تزول عنه النعمة،فقال عن جنة الآخرة وهم فيها خالدون فلا هى تزول عنهم ولا هم يزولون عنها.

---

(١) البقرة ٢٥
(٢) مريم ٦١-٦٢
(٣) الأنفال ٤

وقوله تعالى ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا وارد على عادة المتنعمين فى دار الإقامة المعبر عنها، بالعدن. أخرج ابن المنذر عن يحى بن كثير قال كانت العرب فى رزقها إنما لها أكلة واحدة فمن أصاب أكلتين سمى فلان الناعم،فأنزل الله يرغب عباده فيما عنده[١].

ووصف الرزق بالكريم " اشارة إلى كون تلك المنافع خالصة دائمة مقرونة بالإكرام والتعظيم. وقيل ما أعد الله لهم فى الجنة من لذيذ المآكل والمشارب وهناء العيش[٢].

ولكن إذا كنا أدركنا أن مصدر الرزق فى الحياة الدنيا السماء لقوله تعالى:وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَاتُوعَدُونَ[٣]. فما مصدر الرزق فى الجنة؟

يقول فخر الدين الرازى لما ذكر تعالى أن لهم رزقا بين أن ذلك الرزق ماهو فقال فواكه والفاكهة عبارة عما يؤكل لأجل التلذذ، لا لأجل الحاجة، وأرزاق أهل الجنة كلها فواكه لأنهم مستغنون عن حفظ الصحة بالأقوات، فإنهم أجسام محكمة مخلوقة للأبد، فكل ما يأكلونه فهو على سبيل التلذذ[٤]. ثم يقول فى موضع آخر من تفسيره الكبير: "واعلم أنه تعالى بعث محمداصلى الله عليه وسلم-إلى العرب أولا ثم إلى العالمين ثانيا، والعرب كانوا فى ضيق شديد بسبب المأكل والمشرب والفاكهة فلهذا السبب تفضل تعالى عليهم بهذه المعانى مرة بعد أخرى تكميلا لرغبتهم وتقوية لدواعيهم[٥].

يقول تعالى: أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ. فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ. فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ[٦].
أي أن لهم عطية معلومة لاتنقطع. قال قتادة يعنى الجنة.. وقيل هى الفواكـــــه.....

(١) الألوس جـ١٦، ص ١١٢، وانظر ابن كثير جـ٣، ص ١٣٣.
(٢) مفاتيح الغيب جـ١٥،ص ١٢٨
(٣) سورة الذاريات الآية ٢٢
(٤) جـ٢٦، ص ١٣٦، وانظر الألوس جـ٢٣، ص٨٦. والزمخشرى الكشاف جـ٣، ص٣٣٩.
(٥) جـ٢٧، ص ٢٢٦.
(٦) الصافات ٤١-٤٣.

والفواكه جمع فاكهة وهى الثمار كلها رطبها ويابسها.. والجنات النعيم البساتين التى يتنعمون فيها[١].

والسبب فى ذكر هذا المعنى أن ديار العرب حارة قليلة الفواكه والأشربة فرغبهم الله تعالى فيه[٢].

يقول جل شأنه: مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ[٣].

ويقول: وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ. لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ[٤].

إنها فاكهة كثيرة بحسب الأنواع والأصناف لابحسب الأفراد فقط. وقوله تعالى منها تأكلون أي لاتأكلون إلا بعضها، وأعقابها باقية فى أشجارها، فهى مزينة بالثمار أبدا موقرة بها لا ترى شجرة عريانة من ثمارها كما فى الدنيا. وفى الحديث لاينزع رجل فى الجنة من ثمرها إلا نبت مكانها مثلاها[٥].

ويقول تبارك اسمه: إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ. فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ. كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ[٦].

ويقول عز من قائل: فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ. قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ[٧].

ويقول سبحانة: وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ[٨].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن جـ١٥، ٧٧.
(٢) مفاتيح الغيب جـ٢٦، ص ٢١٩
(٣) سورة ص ٥١.
(٤) الزخرف ٧٢-٧٣.
(٥) روح المعانى جـ٢٥، ص ١٠١ والقرطبى جـ١٦، ص ١١٥.
(٦) الطور ١٧-١٩
(٧) الحاقة ٢٢-٢٣
(٨) الواقعة ٢٠

آيات متنوعة تبرز مدى النعيم الذى يلقاه المؤمن فى الجنة، لدرجة أن الفاكهة قريبة من يده ينالها قاعدا أو نائما، بل يتخير من أنواها ماتشتهيه نفسه.

ولعل تكرير ذكر المطاعم فى القرآن العظيم مع أنها كلا شيء بالنسبة إلى سائر أنواع نعيم الجنة لما كان بأكثرهم في الدنيا من الشدة والفاقة فهو تسلية لهم[١].

ولعلنا لو ذكرنا أنواعا من نبات الجنة أدركنا أنه نعيم مادى محسوس، يبدو فى أوصافه شيء من خشونة البداوة ويلبى هواتف أهل البداوة حسبما تبلغ مداركهم وتجاربهم من تصور ألوان النعيم[٢].

ومن نباتات الجنة المذكورة فى القرآن ، السدر والطلح.
يقول تعالى: وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ. وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ[٣].

ويكاد المفسرون قديما وحديثا يتفقون على أنالسدر هو شجر النبق المعروف عند العرب[٤] ويذكرون قصة رجل أعرابى، يعرف السدرجيدا، ويدرك أنه ليس بطعام الإنسان، عندما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقال له " لقد ذكر الله تعالى فى القرآن شجرة مؤذية وماكنت أرى فى الجنة شجرة تؤذى صاحبها. قال: ماهى؟ قال السدر فإن له شوكا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم. أليس الله يقول " فى سدر مخضود"؟ خضد الله شوكه فجعل مكان كل شوكة ثمرة وأن الثمرة من ثمره تفتق عن إثنين وسبعين لونا من الطعام مافيها لون يشبه الآخر[٥].

---

(١) روح المعانى جـ٢٥، ص١٠١

(٢) فى ظلال القرآن جـ٢٧، ٣٤٦٤

(٣) الواقعة ٢٧-٢٩.

(٤) الألوسى جـ٢٧، ص ١٤٠. والكشاف جـ٤، ص ٥٤، وابن كثير جـ٤، ص٢٨٨. والظلال جـ٢٧، ص ٣٤٦٤.

(٥) المصادر نفسها والصفحات نفسها.

أما الطلح فلم يتفق فى تفسيره المفسرون، فذهب البعض إلى أنه الموز، وذهب آخرون إلى أنه شجر من أشجار الحجاز من عظام العضاة فيه شوك. ولكنه فى الجنة منضودمعد للتناول بلا كد ولا مشقة.ومنهم من قال هو شجر أم غيلان وله نوار كثير[١].

أما فخر الدين الرازى فله رأى خاص فى تفسير السدر والطلح إذ يقول "وأية نعمة تكون فى كونهم فى سدر، وهو من أشجار البوادى، لابمر ولايحلو ولايطيب؟ نقول فيه حكمة بالغة، غفلت عنها الأوائل والأواخر، واقتصروا فى الجواب أن الجنة تمثل بما كان عند العرب عزيزا محمودا وهو صواب ولكنه غير فائق، والفائق هو أن نقول إنا قد بينا أن البليغ يذكر طرفى أمرين، يتضمن ذكرهما الإشارة إلى جميع مابينهما.. فنقول لاخفاء فى أن تزين المواضع التى يتفرج فيها بالأشجار، وتلك الأشجار تارة يطلب منها نفس الورق، والنظر اليه والاستظلال به، وتارة يقصد إلى ثمرها، وتارة يجمع بينهما. لكن الأشجار أوراقها أقسام ويجمعها نوعان. أوراق صغار، وأوراق كبار. والسدر فى غاية الصغر، والطلح وهو شجر الموز فى غاية الكبر. فقوله تعالىفى سدر مخضود. وطلح منضود إشارة إلى مايكون ورقه فى غاية الصغر من الأشجار، وإلى مايكون ورقه فى غاية الكبر منها، فوقعت الإشارة إلى الطرفين جامعة لجميع الأشجارنظرا إلي أوراقها والورق أحد مقاصد الشجر، ونظيره فى الذكر ذكر النخل والرمان عند القصد إلى ذكر الثمار لأن بينهما غاية الخلاف[٢].

من خلال كلام المفسرين عن السدروالطلح أقول إنهما نوعان من النبات يعرفهما العرب، لذلك ذكرا فى القرآن على أنهما من أهم نباتات الجنة. وإذا كان بهما أطراف من خشونة البيئة الصحراوية فلم يستطع أحد أكلهما فإن الله تعالى بقدرته جعلهما فى الجنة من أهم أطعمة أهل الجنة على مانصت عليه الآيات.

---

(١) روح المعانى ج٢٧، ص ١٤٠ والكشاف جـ٤، ص ٥٤، وابن كثير جـ٤، ص٢٨٨. والظلال جـ٢٧، ص ٣٤٦٤.

(٢) جـ٢٩، ص ١٦٣ بتصرف

إنها صورة نباتية جديرة بأن يتأملها كل إنسان مؤمن وغير مؤمن فهى تدعو المؤمنين وتدفعهم إلى أن يزداد واطاعة وتقوى للوصول إلى هذه النعم فى الجنة. كما تدفع غير المؤمنين إلى التدبر والتفكير فيما أعده الله لمن أطاعـــه وبالتالى يعودون إلى رحاب الله ودينه الحنيف.

ورغم مانلاحظه اليوم من ازدهار فنون الرسم والتصوير، إلا أن فنانا مالايستطيع أن يرسم صورة حقيقية للجنة وسحرها، هذه الصورة التى صورها القرآن بالكلمـــة ففاقـت كل ابداع، وكل تصوير، حتى أن خيال الإنسان مهما كانت عبقريته وسعته لايستطيع الوصول إلى كنهها. إنها أي الجنة فواكه مختلفة الألوان والطعوم، ظل ظليل،روح وريحان أنهار جارية، حور عين، ثياب من سندس.. نقول إنها صورة كلية لأشياء جزئية جمعها القرآن ونسقها بحيث تكون من الروعة والعظمة بما يفوق كل تخيل وكل تصور.

ومثل هذه الصورة الكلية للجنة نجدها فى سورة الرحمن إذ يقول جل شأنة:

وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ. فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ. ذَوَاتَا أَفْنَانٍ. فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ. فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ. فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ. فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ. فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ. مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ. فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ[1].

والأفنان جمع فنن وهو الغصن، فهى جنات ذات أغصان لا حصر لها ولاحد، أغصان تنشر على أهل الجنة الظلال، ويجنون منها الثمار، وقد سخرت الغصون بجميع ثمارها لأهل الجنة كى يقطفوا منها كما يشاءون.. واختلف المفسرون فى المراد بالزوجين، فقيل هما صنفان: معهود وغريب لم يره أحد ولم يسمع به. وقيل ضربان: رطب ويابس أو حلو وحامض. وعن ابن عباس مافى الدنيا شجرة حلوة ولامرة إلا وهى في الجنة حتى الحنظـل إلا

(١) الرحمن ٤٦-٥٥

أنه حلو.. وجنا الجنتين وهو ما يجنى من ثمارها الطبيعية دان، فهو فى متناول أيديهم ، قريب منهم بحيث يقطفون منه كلما شاءوا قائمين أو جالسين أو مضطجعين لايرد أيديهم بعد ولاشوك. وقيل إن كل مايطلبونه يجدونه فوقهم فيتناولونه[١].

ويقول جل شأنه فى نفس السورة:

وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ. فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ. مُدْهَامَّتَانِ. فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ. فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ. فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ. فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ. فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ[٢].

ومدها متان من الدهمة، وهى سواد الليل، ويعبر بها عن الخضرة التامة للزروع والرياض، كأنها من شدة خضرتهما سوداء اللون. واختلف المفسرون، هل عطف النخل والرمان علي الفاكهة من باب عطف الأشياء المختلفة بعضها على بعض، أو من باب عطف الخاص على العام. والقائلون بالرأى الأول يقولون إن النخل والرمان عند العرب بمنزلة القمح لأن النخل عندهم قوتهم، والرمان كالثمرات وكانوا يتقوتون به أيضا لكثرته عندهم، ولذلك أفردت عنهما الفواكه. وأما القائلون بالرأى الثانى وهو أن النخل والرمان من الفواكه، فيقولون إنهما خصا بالذكر لفضلهما وحسن موقعهما من الفاكهة[٣].

ولايقتصر طعام أهل الجنة المذكور فى القرآن على هذه الأنواع التى ذكرناها وإنما هناك أنواع أخرى من الفاكهة مثل العنب.

---

(١) تفسير سورة الرحمن، ص١٢٣-١٢٧بتصرف.

(٢) الرحمن ٦٢-٦٩

(٣) د. شوقى ضيف : المرجع السابق، ص ١٣٤، ١٤٤، بتصرف

يقول تعالى: إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا. حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا[١]

والمفاز "الفوز بالنعيم والثواب أو مكان ذلك"والحدائق" البساتين فيها أنواع الشجر المثمر[٢] والعربية تستعمل الحدائق فيما يحدق به بناء من شجر أو نخل. ثم شاع إطلاقه على القطعة من النخل توسعا، بملحظ من احداقه بها. وذهب الراغب فى المفردات إلى أنها سميت حديقة تشبيها بحدقة العين فى الهيئة وحصول الماء فيها [٣] والأعناب معروفة جمع عنب خصها بالذكر لأهميتها.

إنها آيات تكمل ماسبق من وصف للجنة فى الآيات السابقة، وتظهر أن ذلك"عطاء لهم من مالك السموات والأرض والذى لايملك أحد آن يخاطبه فى شأن الثواب والعقاب بل هو المتصـــرف وحده فى ذلك اليوم الذى يقوم فيه الروح والملائكة صفا لا يمكن لأحد منهم أن يتكلم إلا من أذن له الرحمن ونطق الصواب [٤].

وللنبات فى الجنة دور آخر يكمل الصورة التى سبق توضيحها من قبل. يتمثل هذا الدور فى الظل الناجم عن هذه البساتين وهذه الرياض المتشابكة الأغصان وهى صورة تبرز أكثر عندما نتصور إنسان النار وهو يتقلب فيها لايجد ملجأ ولامحيصا منها ولاظلا ولا مايشبه الظل.

وسبق أن تحدثت فى الفصل السابق، عن البيئة المكية وافتقارها إلى الظل،ومن ثم ندرك أن السبب فى احتفال القرآن بالظل فى الجنة، هو ترغيب أهل مكة في الإيمان بالله القادر على أن يأتى لهم بما تفتقده بيئتهم وتصبو إليه نفوسهم. فالظل من مراتع البدوى ومناعمه، التى يطمح إليها خياله وتهتف بها أشواقه. فلنتأمل هذه الصوة التى رسمها القرآن

---

(١) النبأ ٣١-٣٢

(٢) تفسير جزء عم ص١١

(٣) الإعجاز البيانى. د. عائشة عبد الرحمن، ص ٤٢٩، دار المعارف، ط٢

(٤) تفسرجزء عم ص ١١

للظل فى الجنة صورة الإنسان وهو متكىء على أريكته ومن حوله الحور العين، والأشجار تحوطه بظلها الدائم. يقول تعالى: إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ. هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ[١].

والظلال جمع ظل والمراد الوقاية من مكان الألم، فإن الجالس تحت كن لايخشى المطر ولاحر الشمس فيكون به مستعدا لدفع الألم، فكذلك لهم من ظل الله مايقيهم الأسواء[٢].

ويقول جل شأنه: أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا[٣].

وهو الموضع الذى يستقرون فيه من منازلهم فى الجنة من مستقر هؤلاء المشركين الذين يفتخرون بأموالهم وما أوتوا من عرض هذه الدنيا فإن قال قائل وهل فى الجنة قائلة فيقال وأحسن مقيلا فيها؟ قيل المعنى وأحسن فيها قرارا فى أوقات قائلتهم فى الدنيا[٤] وقال الزمخشرى إن المقيل: هو المكان الذى يأوون إليه للاسترواح الى أزواجهم والتمتع بمغازلتهن وملامستهن. كما أن المترفين فى الدنيا يعيشون على ذلك الترتيب.. وسمى مكان دعتهم واستراحهم الى الحور مقيلا على طريق التشبيه. وفى لفظ الأحسن رمز إلي مايتزين به مقيلهم من حسن الوجوه وملاحة الصور إلى غير ذلك من التحاسين والزين[٥].

ويقول تبارك اسمه: وَظِلٍّ مَمْدُودٍ[٦].

---

(١) يس ٥٥-٥٦

(٢) مفاتيح الغيب، جـ٢٦، ص ٩٢.

(٣) الفرقان ٢٤.

(٤) أحكام القرطبى جـ١١، ص ٤، الرازى جـ٢٤، ص ٧٣.

(٥) الكشاف، جـ٣، ص ٨٩

(٦) الواقعة ٣٠

ويقول: مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ[١].

فجنات الدنيا لايدوم ورقها وثمرها. أما جنات الآخرة فثمارها دائمة غير منقطعة. وظلها دائم أيضا، والمراد أنه ليس هناك حر ولابرد ولاشمس ولاقمر ولاظلمة ونظيره قوله تعالى: لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا[٢].

يقول تعالى: إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ[٣].

ويقول جل شأنه: وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا[٤].

فالمقصود" ظلال الأشجار وظلال القصور. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم. إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لايقطعها[٥].

لقد ذكر القرآن الكريم أصنافا للجنة منها الفردوس و المأوى والخلد ودار السلام وعليون. وكل جنة من هذه الجنات يكون النبات عنصرا مقصودا فيها وما الجنة إلا بساتين ورياض. فللون الأخضر إذن دوره الكبير فى الجنة، حتى أن لباس أهل الجنة وفراشهم وصف بالخضرة التى تأخذ بالألباب. وذلك لأن الخضرة كما قال الألوس "أحسن الألوان والنفس تنبسط بها أكثر من غيرها.. وقيل ثلاثة مذهبة للحزن: الماء والخضرة والوجه الحسن[٦].

---

(١) الرعد ٣٥.

(٢) الرازى جـ١٩، ص ٦٠

(٣) المرسلات ٤١

(٤) النساء ٥٦

(٥) روح المعانى جـ٢٧، ص ٤٤٠. والقرطبى جـ٥، ص ٢٥٥ وابن كثير جـ٤، ص ٢٨٩. والطبرى جـ٢٧، ص ١٠٥.

(٦) جـ١٥، ص ٢٧١

يقول تعالى: أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا[١].

ويقول جل شأنه: إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ[٢].

ويقول عز من قائل: عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا[٣].

والسندس: غليظ الديباج. وقيل هو الحرير[٤].وخص الأخضر بالذكر لأنه الموافق للبصر، لأن البياض يبدد النظر ويؤلم ، والسواد يذم، والخضرة بين البياض والسواد وذلك يجمع الشعاع[٥]..

"وفى الجمع بين السندس والإستبرق إشعار ما بأن لأولئك القوم فى الجنة مايشتهون، ونُكرا لتعظيم شأنهما، وكيف لا وهما وراء مايشاهد من سندس الدنيا واستبرقها بل وما يتخيل من ذلك. وأخرج البيهقى عن أبى الخير مرثد بن عبد الله قال: فى الجنة شجرة تنبت السندس منه يكون ثياب أهل الجنة[٦].

وهذا الذى ذكر من نعيم أهل الجنة ليس إلا بعض المتاع ذى المظهر المادى الذى يلبى بعض رغائب النفوس المؤمنة.

---

(١) الكهف ٣١
(٢) الدخان ٥١-٥٣
(٣) الانسان ٢١
(٤) روح المعانى جـ١٥، ص ٢٧١، والطبرى جـ١٥، ص ١٥٩.
(٥) القرطبى جـ١٠، ص ٣٩٧.
(٦) روح المعانى جـ١٥، ص ٢٧٢

ثانيـــا: النبات فـى النـــار

لاحظنـا أن حديـث القرآن عن النبات فى الجنة كان متنوعا شكلا ومضمونا، وهو تنويـــع يتلاءم مع المؤمنين المقيمين فى الجنة حتى يهىء لهم حياة ناعمة، وذلك جزاء لهم عما قضوه من حياتهم الأولى وقد حرموا أنفسهم من ملاذها وقضوها عابدين الله تعالى.

أما فى النار فسوف يكون العقاب بما يتلاءم مع من قضى حياته، لاهم له إلا ملاذه ورغائبه، ونسى أن هناك إلها خلقه لعبادته:وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ.مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ[1]نسى ذلك وتكبر وتجبر وعلا فى الأرض وكان من المفسدين. فهذا أخذ حظه من الدنيا ونسى الآخرة الأفضل منها، فهذا مصيره النار بما فيها من مظاهر العذاب الأليم.

إن هؤلاء الكفرة لهم طعام معدلهم، طعام نما فى النار وتغذى عليها وكأن الله تعالى يقول لهم مثلما جعلتم حياتكم الأولى نامية على النار.وذلك لأكلهم مما لم يحله للإنسان مثل الربا. فسوف تكون حياتكم أيضا فى النار نامية على ماينبت فيها ويتغذى عليها. فهؤلاء يخاطبهم الله تعالى واصفا طعامهم بقوله تعالى إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا.وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا[2].

(١) الذاريات ٥٦-٥٧

(٢) المزمل ١٢-١٣

فهذا التهديد يجيء ردا على تكذيب أولى النعمة خاصة. فالطعام ذو الغصة هو الجزاء المقابل للنعمة، وأولو النعمة يستأهلونه لأنهم لم يراعوا نعمتهم ولم يشكروا واهبها إياهم[١] وهذا الطعام ينشب فى الحلوق ولايكاد يساغ كالزقوم والضريع[٢].

فطعام أهل النار بين الزقوم والضريع، فما هو الزقوم وما هو الضريع؟

يقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ. لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ. فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ. فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ. فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ. هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾[٣]

فعلى ترتيب نزول الآيات الواردة فى شجرة الزقوم هذه أول آية نزلت فى شجرة الزقوم[٤]

ومن خلالها لاندرى ماشجرة الزقوم، ولكن اللفظ نفسه يصور بجرسه، ملمسا خشنا شائكا مدببا يمزق الأيدى، وذلك مقابل، السدر المخضود الذى لاشوك فيه، ومع هذا فإنهم لآكلون من هذه الشجرة الشائكة فمالئون منها البطون[٥].

والآيات تصور حال الآثمين حين يأكلون من شجر الزقوم، وإذ يقر ما يأكلون منه فى بطونهم فهم حين الأكل لايأكلون من شجرة واحدة بل من عدة من شجره، كأن لكل شجرة مذاقا غير مذاق الأخرى، فبعض الشجر أخبث من بعض وأشد تعذيبا وفى تعدد مايأكلون منه إذن تنويع فى العذاب ومزيد منه.

---

(١) مشاهد القيامة فى القرآن ص ٦٠، سيد قطب ط١١ ١٩٩٣. دار الشروق

(٢) روح المعانى جـ٢٩، ص ١٠٧، والقرطبى، جـ٢٩، ص ٤٦، والكشاف جـ٤، ص ١٧٧

(٣) الواقعة ٥١-٥٦

(٤) البرهان فى علوم القرآن للزركشى، المكتبة العصرية، صيدا ، بيروت جـ١،ص١٩٣، ط٢

(٥) مشاهد القيامة ١٣١

ولايلبث الطاعمون من الزقوم أن يجدوا من حر العطش مالا يطيقون صبرا عليه فلا يكون لهم مما يشربون إلا الحميم. فيشربون منه ضارين به كما يشرب الهيم وهو على شدة حره واستبشاع مذاقه عليهم مما يذيقهم العطش من هول العذاب[١].

أما كفار مكة حين سمعوا هذه الآيات فى شجرة الزقوم، جعلوها موضع سخرية واستهزاء وقالوا: إن محمدا يزعم أن الجحيم تحرق الحجارة ثم يقول ينبت فيها الشجر. وبلغ بأبى جهل حد السخرية أن قال " يامعشر قريش هل تدرون ماشجرة الزقوم التى يخوفكم بها محمد؟ قالوا لا. قال عجوة يثرب بالزبد، والله لئن استمكنا منها لتزقمنها تزقما[٢].

واستهزاء أبى جهل والمشركين بشجرة الزقوم كان سببا فى أن جعلها الله فتنة لهم فى الحياة الأولى وعذابا لهم فى الأخرة. نلمس ذلك من خلال قوله تعالى فى سورة الإسراء.

وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا[٣].

وكذلك فى قوله تعالى فى سورة الصافات:

أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ. إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ. إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ. طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ. فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ. ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ. ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ[٤].

---

(١) على النجدى ناصف مع القرآن الكريم، ص١٤٦، دار المعارف بدونتاريخ.

(٢) الكشاف جـ٢، ص ٤٥٥، ابن كثير جـ٣، ص٥٠، روح المعانى جـ٢٣، ص ٩٥، القرطبى، جـ١٠، ص ٢٨٣.

(٣) الآية ٦٠

(٤) الآيات من ٦٣-٦٩

يقول فخر الرازى فى تفسيره الكبير: وكانت هذه الفتنة فى ذكر هذه الشجرة من وجهين: الأول: أن أبا جهل قال: زعم صاحبكم أن النار تحرق الحجر حيث قال (وقودها الناس والحجارة) ثم يقول بأن فى النار شجرا والنار تأكل الشجر فكيف تولد فيها الشجرة. والثانى: قول أبى جهل مانعلم الزقوم إلا التمر والزبد فتزقموا منه، فأنزل الله تعالى حين عجبوا أن يكون فى النار شجر (إنا جعلناها فتنة للظالمين). ثم قال تعالى (ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغيانا كبيرا). وذلك لأن هؤلاء خوفوا بمخاوف الدنيا والأخرة وشجرة الزقوم فمازادهم هذا التخويف إلا طغيانا كبيرا وذلك يدل على قسوة قلوبهم وتماديهم فى الغى والطغيان[1].

وأصل النزل" الفضل والريع فى الطعام. يقال طعام كثير النزل فاستعير للحاصل من الشىء. وحاصل الرزق المعلوم اللذة والسرور. وحاصل شجرة الزقوم الألم والغم.. يعنى أن الرزق المعلوم نزل أهل الجنة وأهل النار نزلهم شجرة الزقوم. فأيهما خير فى كونه نزلا؟ ... ومعلوم أنه لاخير فى شجرة الزقوم ولكن المؤمنين لما اختاروا ما أدى إلى الرزق المعلوم واختار الكافرون ما أدى إلى شجرة الزقوم قيل لهم ذلك توبيخا على سوء اختيارهم.(فتنة للظالمين) محنة وعذابا لهم فى الآخرة أو ابتلاء لهم في الدنيا. وذلك أنهم قالوا كيف يكون فى النار شجرة والنار تحرق الشجر فكذبوا. (فى أصل الجحيم) قيل منبتها فى قعر جهنم وأغصانها ترتفع إلى دركاتها. والطلع للنخلة فاستعير لما طلع من شجرة الزقوم من حملها.. وشبه برءوس الشياطين دلالة على تناهيه فى الكراهة وقبح المنظر. لأن الشيطان مكروه مستقبح فى طباع الناس لاعتقادهم أنه شر محض لايخلطه خير. فيقولون فى القبيح الصورة كأنه وجه شيطان. كأنه رأس شيطان. وإذا صوره المصورون جاءوا بصورته على أقبح مايقدر وأهوله..[2].

---

(١) جـ١٥، ص ٢٣٨ ومابعدها

(٢) الكشاف جـ٣، ص ٣٤٢. الألوس جـ٢٣، ص٩٥.

والزقوم: اسم لشجرة صغيرة الورق مرة كريهة الرائحة تكون فى تهامة وفى البلاد المجدبة المجاورة للصحراء[١].

وعلى الرغم من إلقاء بعض المفسرين الضوء حولها إلا أنه يوجد منهم من اختلفوا حولها، وهل هى من شجر الدنيا التى تعرفها العرب أم لا؟ على قولين: إنهامعروفة من شجر الدنيا. قال قطرب إنها شجرة مرة تكون بتهامة من أخبث الشجر. وقال غيره بل هو كل نبات قاتل. والثانى: إنها لاتعرف فى شجر الدنيا فلما نزلت هذه الآية قال كفار قريش مانعرف هذه الشجرة. فقال أبو جهل قولته المشهورة[٢].

ويقول جل شأنه فى شأن هذه الشجرة أيضا.

إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ. طَعَامُ الأَثِيمِ. كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ. كَغَلْيِ الْحَمِيمِ[٣].

فعندما يجوع أهل النار يلتجئون إليها فيأكلون منها، فتغلى فى بطونهم كما يغلى الماء الحار. وشبه مايصير إلى بطونهم بالمهل وهو النحاس المذاب[٤].

من خلال وصف القرآن لشجرة الزقوم أستطيع أن أقول إنها شجرة لاكشجر الدنيا هيئة وطبيعة ، لأنها تنبت فى قرار جهنم، وتنمو على السـعير، خبيثة الطعم، كريهة المنظر، تضرم العطش فى جوف طاعمها فلايجد غير الحميم، فيشرب منه ليزيد مايتأجج فى جوفه من حر الظمأ.

(١) الألوس جـ٢٣، ص ٩٥

(٢) أحكام القرآن للقرطبى، جـ١٥، ص ٨٥ ومابعدها

(٣) الدخان ٤٣-٤٦.

(٤) القرطبى جـ١٦، ص ١٤٩، الطبرى جـ٢٥، ص ٧٨

أما عن النوع الأخر من أطعمة أهل النار وهو الضريع فيقول تعالى فيه: لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ. لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ[١].

والضـــريع نبت ذو شوك لاصق بالأرض تسميه قريش الشبرق، إذا كان رطبا، فإذا يبس فهو الضريع لاتقربه دابة ولابهيمة ولاترعاه وهو سم قاتل وهو أخبث الطعام. على هذا عامة المفسرين[٢].

ومعنى قوله تعالى لايسمن ولايغنى من جوع أى إذا طلب أهل النار الطعام ليدفعوا به مايصيبهم من ألم الجوع الذى يلاثم عالمهم الأخروى وحياتهم فى تلك الدار الباقية قدم إليهم من الطعام مالايدفع جوعا ولايفيد سمنا. أي ماليس له أثر من آثار الطعام[٣]. قال القرطبى: لما نزلت هذه الآية قال المشر كون: إن إبلنا لتسمن بالضريع، فنزلت "لا يسمن ولايغنى من جوع" وكذبوا فإن الإبل إنما ترعاه رطبا، فاذا يبس لم تأكله. وقيل اشتبه عليهم أمره فظنوه كغيره من النبت النافع لأن المضارعة المشابهة، فوجودهلايسمن ولايغنى من جوع[٤].

وهناك نوع آخر من أطعمة أهل النار يسمى الغسلين يقول فيه تعالى: إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ. وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ. فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ. وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ. لَّا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ[٥].

---

(١) الغاشية ٦-٧.

(٢) القرطبى جـ٢٠، ص٢٩، الطبرى جـ٣٠، ص ١٠٣، الألوس جـ٢٩، ص ١١٣، الكشاف جـ٤، ص ٤٦، ابن كثير جـ٤، ص ٥٠٢.

(٣) جزء عم ص ٨٤

(٤) جـ٢٠، ص ٣٢، من الجامع لأحكام القرآن.

(٥) الحاقة ٣٣، ٣٧.

والغســـلين من الغســـل فكأنه ينغســـل من أبدانهم، وهو صديد أهل النار السائل من جروحهم[١].

وقد ذهب بعض المفسرين الى أن الغسلين من أشجار النار الملتهبة[٢]. وأعتقد أنه أخذ بالحديث الذى ورد فى أحكام القرطبى والذى رواه الضحاك والربيع بن أنس "أن الغسلين شجر يأكله أهل النار[٣].

وسواء أكان الغسلين نباتا أم سائلا من أجسادهم، فإن مايهمنا أنه من أطمعتهم التى تناسبهم وتناسب حياتهم فى النار.

من خلال الآيات المذكورة فى شأن طعام أهل النار أقول مع الإمام محمد عبده "إنه شىء يوافق النشأة الآخرة، وقد عبرالله عنه بالعبارات المختلفة، وكلها مما يصور فى أذهاننا بشاعته وخبثه لتنفر منه نفوسنا وتطلب كل وسيلة للفرار منه فتبعد بذلك عن العقائد الفاسدة والأعمال الخاسرة [٤].

ومن باب الملاحظة أشير إلى أن الآيات التى وردت فى شأن طعام أهل النار من الزقوم والضريع والغسلين جميعها مكية ، وذلك راجع إلى أن مكة وقت نزول القرآن كانت منبع الشرك والكفر، فلابد لهم من التهديد. ومن ثم تكرر لفظ الزقوم فى أربع آيات من القرآن وبصور مختلفة.

---

(١) القرطبى جـ١٨، ص ٢٧٣، الطبرى جـ٢٩، ص ٤١، الكشاف، جـ٤، ص ١٥٤، ابن كثير جـ٤، ص ٤١٦.

(٢) سورة الرحمن، د. شوقى ضيف، ص ١٠١

(٣) جـ١٨، ص ٢٧٣

(٤) ص ٨٤ من تفسير جزء عم.

أما أهل المدينة فآمنوا بالله ورسوله فوعدوا بالجنة التى تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها.

أما عن الظل فى النار فتصوره الآيات تصويرا منفرا وهذا أمر طبيعى، لأن نبات النار كما رأينا منفر، فقد نما وتغذى على النار فكذلك ظل النار مثل نباتها.

يقول تعالى: ﴿انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ. لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ﴾[١].

يعنى لهب النار ارتفع وصعد معه دخان فمن شدته وقوته أن له ثلاث شعب. وظل الدخان المقابل للهب لاظليل هو فى نفسه ولايغنى من اللهب يعنى ولايقيهم حر اللهب[٢].

وتسميته بالظل هنا "امتداد للتهكم فى قوله "انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ" وهو تمنية ما تكاد تطوف بخيالهم حتى يفجعوا فيها فهو ظل ولاظل[٣].

ويقول جل شأنه: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ. فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ. وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ. لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾[٤].

فهم يفزعون من السموم إلى الظل كما يفزع أهل الدنيا، فيجدونه ظلا من يحموم. أى من دخان جهنم أسود شديد السواد. وهو ظل ليس باردا بل حار، وكذلك ليس كريما[٥].

---

(١) المرسلات ٣٠-٣١

(٢) ابن كثير جـ٤،ص ٤٦٠، والطبرى جـ٢٩، ص ١٤٦.

(٣) مشاهد القيامة ، ص ٨٥

(٤) الواقعة ٤١-٤٣

(٥) القرطبى جـ١٧، ص ٢١٣.

فلا يهيء لهم الراحة والاسترواح وأى راحة فى جهنم؟!! فهذا ظل ليس له من الظل إلا اسمه.

يقول تعالى: لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ[١].

وهو مشهد رعيب. مشهد النار فى هيئة ظلل من فوقهم وظلل من تحتهم وهم فى طيات هذه الظلل المقتمة تلفهم وتحتوى عليهم، وهى من النار. إنه مشهد يعرضه القرآن للعباد وهم بعد فى الأرض يملكون أن ينأوا بأنفسهم عن طريقه ويخوفهم مغبته لعلهم يجتنبونه[٢].

وهى آيات كما نلاحظ مكية والبيئة المكية تفتقر إلى الظل لهذا فالقرآن يرغبهم فى ظلال الجنة ويتوعدهم بظلال النار.

أما عن لباس أهل النار فهو مناسب لحياتهم فى النار.

يقول تعالى: وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ. سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ[٣].

أى ثيابهم التى يلبسونها من قطران وهوالذى تهنأ به الإبل أي تطلى به. ومن شأنه أنه يسرع فيه اشتعال النار وهو أسود اللون، فتطلى به جلود أهل النار حتى يعود طلاؤه لهم كالسرابيل وهى القمص لتجتمع عليهم الأربع: حرقة القطران وإسراع النار فى جلودهم واللون الأسود والرائحة الكريهة[٤].

---

(١) الزمر ١٦

(٢) فى ظلال القرآن جـ٢٤، ص ٣٠٤٥

(٣) ابراهيم ٤٩-٥٠

(٤) الكشاف جـ٢، ص ٣٨٥، وانظر ابن كثير جـ٢، ص ٥٦١

لقد عنى القرآن بمشاهد القيامة البعث والحساب والنعيم والعذاب، فلم يعد ذلك العالم الأخر الذى وعده الناس بعد هذا العالم الحاضر موصوفا فحسب، بل عاد مصورا محسوسا، وحيا متحركا وبارزا شاخصا وعاش المسلمون فى هذا العالم عيشة كاملة: رأوا مشاهده وتأثروا بها وخفقت قلوبهم تارة واقشعرت جلودهم تارة وسرى فى نفوسهم الفزع مرة وعاودهم الإطمئنان أخرى، ولفحهم من النار شواظ، ورق إليهم من الجنة نسيم، ومن ثم باتوا يعرفون هذا العالم تمام المعرفة قبل اليوم الموعود.

هذا العالم بسيط كل البساطة، واضح وضوح العقيدة الإسلامية: موت وبعث ونعيم وعذاب. فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم الجنة بما فيها من نعيم. وأما الذين كفروا وكذبوا بلقاء الله فلهم النار بما فيها من جحيم. ولا شفاعة هناك ولافدية من العذاب ولا اختلال قيد شعرة فى ميزان العدالة الدقيق[1]. فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ[2].

(١) مشاهد القيامة ، ص ٤٢.

(٢) الزلزلة ٧ـ٨

الفصل الخامس
النبات وضرب الأمثال

مدخل :

أولا : فـــى الـــقـــرآن المـــكـــى.

ثـانـيـا : فـي الـقـرآن المـدنـى.

آيات للكمبيوتر

الفصل الخامس
النبات وضرب الأمثال فى القرآن

مدخل:

كان العرب عند مبعث النبى صلى الله عليه وسلم فى نهضة لغوية شاملة، فيهم نوابغ الشعراء، ومصاقع الخطباء، ولهم كما يقول الجاحظ" القصيد العجيب، والرجز الفاخر والخطب الطوال البليغة والقصار الموجزة، ولهم الأسجاع، والمزدوج، واللفظ المنثور وكانوا يتنافسون على الفصاحة والبلاغة[١].

ولذلك بدأ القرآن خاصة فى أواسط العهد المكى الذى اشتد فيه الجدل يواجههم بالتحدى والمعاجزة حسما لكل جدل أو ريب فيه ، وبرهانا قاطعا على إعجازه . وأول مانزل من آيات المعاجزة، آية الإسراء المكية التى تقول:

قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَـٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا. وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا[٢].

وبعد هذا التحدى العام نزلت آية يونس تتحداهم أن يأتوا بسورةواحدة فحسب مثل هذا القرآن: أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ[٣]وكذلك تحدتهم آية هودالتى نزلت بعد يونس أن يأتوا بعشر سور مثله: أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ[٤].

وبذلك قرر القرآن أن هناك نوعين من النفوس نفوس مؤمنة ونفوس غير مؤمنة، النفوس المؤمنة يربيها القرآن تربية خاصة تتلاءم مع قوتها ، والنفوس غير المؤمنة يقدم لهـــا

---

(١) اعجاز القرآن للباقلانى ص، ٢٦، تحقيق السيد صقر، دار المعارف.

(٢) الآيات ٨٨-٨٩.

(٣) الآية ٣٨

(٤) الآية ١٣ وانظر الإعجاز البيانى٦٦.

من بالغ كلمه ورائع مثله مايجلو غوامض الأمور. ومن أجل هذا كانت الأمثال فى القرآن لونا من ألوان الهداية الإلهية[١].

والأمثال من الأوجه التى نزل عليها القرآن، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، حلال وحرام ومحكم ومتشابه وأمثال، فاعملوا بالحلال، واجتنبوا الحرام، واتبعوا المحكم وآمنوا بالمتشابه، واعتبروا بالأمثال.

وقسمه أبو عبد الله البكر أباذى إلى أربعة أوجه:
أحدهما: إخراج مالا يقع عليه الحس إلى مايقع عليه، وثانيهما: إخراج مالايعلم ببديهة العقل إلى مايعلم بالبديهة، وثالثها: إخراج مالم تجربه العادة إلى ماجرت به، ورابعها: إخراج مالا قوة له من الصفة إلى ماله قوة[٢].

ومن الوسائل التى استخدمها القرآن لتحقيق المراد من المثل وتقريبه إلى الأذهان النبات. فأروع الأمثال القرآنية ماذكر فيه نبات لأنه يبرز المعنى ويوضحه ويصوره بصورة قريبة من الأذهان.

"فاستخدام القرآن عناصر تشبيهاته من الطبيعة سر من أسرار خلوده، فهو باق مابقيت هذه الطبيعة، وبذلك يؤثر فى الناس لإدراكهم عناصره التى يرونها قريبة منهم وبين أيديهم[٣] فهى معانٍ مستمدة من الطبيعة التى تخلع عليها الحياة، وأتبع القرآن فى ذلك طريقة التصوير، فبلغ الغاية بمادته وطريقته، وجمع بين الغرض الدينى والغرض الفنى[٤].

---

(١) الأمثال فى القرآن، محمود بن الشريف، ص ٧ اقرأ دار المعارف، ط٤
(٢) البرهان فى علوم القرآن جـ١، ص ٤٨٦
(٣) من بلاء القرآن، د. أحمد بدوى، ص ١٩٦، نهضة مصر ط٢
(٤) التصوير الفنى فى القرآن ص١٩٢

ولقد شاء الله تعالى أن يجعل من ضرب الأمثال فى القرآن آية لفوائد جمة حتى يستفاد منها أمور كثيرة.

قال الأصبهانى: لضرب العرب الأمثال، واستحضار العلماء المثال والنظائر شيء ليس بالخفى فى ابراز خفيات الدقائق، ورفع الأستار عن الحقائق. تريك المتخيل فى صورة المتحقق، والمتوهم فى معرض المتيقن، والغائب كأنه مشاهد، وفى ضرب الأمثال تبكيت للخصم الشديد الخصومة،وقمع لثورة الجامح الأبى، فإنه يؤثر فى القلوب مالا يؤثر وصف الشيء فى نفسه، ولذلك أكثر الله تعالى فى كتابه وفى سائر كتبه الأمثال، ومن سور الإنجيل سورة تسمى الأمثال،وفشت الأمثال فى كلام النبى صلى الله عليه وسلم، وفى كلام الأنبياء والحكماء[١].

وقال الزركشى فى البرهان: وضرب الأمثال فى القرآن يستفاد منه أمور كثيرة: التذكير والوعظ والحث والزجر والاعتبار والتقرير، وتقريب المراد للعقل، وتصويره فى صورة المحسوس[٢].

وقال الألوس: لضرب الأمثال شأن لايخفى ونور لا يطفى يرفع الأستار عن وجوه الحقائق، ويميط اللثام عن محيا الدقائق، ويبرز المتخيل فى معرض المتيقن، ويجعل الغائب كأنه مشاهد، وربما تكون المعانى التى يراد تفهيمها معقولة صرفة، فالوهم ينازع العقل فى ادراكها حتى يحجبها عن اللحوق بما فى العقل، فيضرب الأمثال يبرز فى معرض المحسوس فيساعد الوهم العقل فى ادراكها ،وهناك تتجلى غياهب الأوهام، ويرتفع شغب الخصام، فالأمثال تضرب للكشف والبيان[٣].

---

(١) معترك الأقران فى اعجاز القرآن للسيوطى جـ١، ص ٤٦٦، دار الفكر العربى.

(٢) جـ١، ص ٤٨٧.

(٣) روح المعانى جـ١، ص ١٦٣

إن الأمثال تبرز المعقول فى صورة مجسمة، وتلبس المعنوى ثوب المحسوس، وتفصل المجمل وتوضح المبهم. لتهذب الطبائع، وتقلم الغرائز الشريرة، فتخفف من غلواء النفوس، وتحد من ضراوتها، وتضع من كبريائها، وغرورها[١].

والمثل فى أصل كلام العرب بمعنى المِثْل والمثيل كشِبْه وشبيه،وهو النظير، ويجمع على أمثال، قال اليزيدي: الأمثال الأشباه،وأصل المثل الوصف. هذا مثل كذا أي وصفه مساو لوصف الآخر بوجه من الوجوه، والمثل القول السائد الذى فيه غرابة من بعض الوجوه ، وقيل المثل ذكر وصف ظاهر محسوس وغير محسوس يستدل به على وصف مشابه له من بعض الوجوه فيه نوع من الخفاء ليصير فى الذهن مساويا للأول فى الظهور من وجه دون وجه، والمقصود من ذكر المثل أنه يؤثر فى القلوب.. لأن الغرض من ضرب المثل تشبيه الخفى بالجلى، والغائب بالمشاهد، فيتأكد الوقوف على ماهيته ويعتبر الحس مطابقا للعقل [٢].

والأمثال فى القرآن تناولت مجالات عدة، فمثلت بالإيمان و مثلت بالكفر، وفضحت النفاق، وحضت على الإنفاق، ونادت بالخير، ونددت بالشر، وصورت الطيب والخبيث والصالح والطالح وغير ذلك مما أشارت إليه.

وتندرج الأمثال القرآنية من الناحية البلاغية فى بنية التشبيه لاسيما التمثيلى المركب، وتدل الدراسة المقارنة لنصوص الكتب المقدسة على أن ضرب الأمثال سياق يحتذى فيها، وفى الكلام المنسوب للأنبياء. كما هو الحال فى بعض أسفار التوراة وفى بعض نصوص الأناجيل، وفى نصوص الأديان البوذية والطاوية.

---

(١) الأمثال فى القرآن ، محمود بن الشريف،ص٨

(٢) تفسير البحر المحيط لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسى جـ١،ص ٧٤، دار الفكر ط ٢ ، ١٩٨٣. والبرهان جـ١، ص ٤٩٠.

وقد فطن شوبنهاور لهذه الخاصية التى تميز أديان الشرق وحكمته، كما فطن لها سبينوزا من قبله.«وليس أول على ذلك مما نجده فى مستهل الإنجيل الرابع المنسوب إلى يوحنا، ومانظفر به فى اليهودية منسوبا إلى فيلون فضلا عن مزامير داوود، وسفر "الأمثال" و"الحكمة" ليشوع بن شيراخ، و"الجامعة" المنسوب إلى سليمان من بين أسفار العهد القديم عند اليهود ،وكتب "الـ أندرزها" الإيرانية التى انتشرت فى إيران قبيل الإسلام وبعده[1].

ودليل مانحن بصدده من أن الأمثال سمة مميزة لأديان الشرق ولآدابه مانجده مسوقا منها فى شكل خرافات مروية على ألسنة الحيوان والطير كما هو الحال فى كليلة ودمنه، وماسيق فيها وماضرب من أمثال انطوت على النصيحة والموعظة الأخلاقية والعبر السياسية.

(١) أبو على أحمد بن محمدمسكويه، الحكمة الخالدة، جاويذان خرد ،تحقيق وتقديم. د. عبد الرحمن بدوى، ط دار الأندلس، انظر المقدمة ص٧

أولا: فى القرآن المكى

لقد تناولت الأمثال القرآنية مسائل عدة، وأول هذه المسائل التى تناولتها الأمثال القرآنية مسألة البعث[١] التى أنكرها أكثر العرب الجاهليين، وكانت نتيجةَ جحودهم الآخرة وانكارهم الجنة والنار والحساب. ليس ذلك فحسب بل كانوا يجادلون الرسول صلى الله عليه وسلم كثيرا فى البعث، وكانوا يقولون أبعد أن تفارق أرواحنا أجسادنا ونصير ترابا نرجع إلى الحياة ونبعث من القبور؟ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ[٢].

ومن أجل هذا ألح القرآن على اقناعهم بالبعث بمختلف الأدلة والبراهين.

ودائما يكرر القرآن على الكفار أن الأرض يموت زرعها وتموت نباتاتها ثم تدب فيها الحياة ثانية، وأن الله لن يعجزه أن يحى الإنسان ثانية كما يحى الأرض بعد موتها وهمودها، وبعد أن تذوى فيها الحياة وينشب الفناء أظفاره، فإذا هو معروض علي ربه ليلقى جزاءه وما يستحق من عقاب أو ثواب[٣].

وفى القرآن آيات متتالية فى آخر سورة يس تحدثت عن رأى منكرى البعث، ثم روت عليهم ردودا متنوعة لأن كفار مكة كانوا يجادلون الرسول فى البعث أشد الجدال، لدرجة أن بعضهم كان يأتيه بالعظام البالية فيفتتها بيده وينشرها فى الهواء، ثم يسأله ساخرا من يحى العظام وهى رميم؟

---

(١) تحدثت عن مسألة البعث من خلال فصلى (الماء والنبات) و (النبات بين الحياة والموت)

(٢) الصافات ١٦

(٣) سورة الرحمن وسور قصار، ص ٢٢٦، ومابعدها

يقول تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ. قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ. الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ. أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ؟ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾[١].

أي الذى بدأ خلق هذا الشجر من ماء حتى صار خضرا نضرا فأثمر إلى أن صار حطبا يابسا توقد به النار. كذلك هو فعال لما يشاء قادر على مايريد لايمنعه شيء، فالذى أخرج هذه النار من الشجر قادر على أن يبعثه[٢].

وقوله تعالى: الذى جعل لكم من الشجرالأخضر نارا فيه تنبيه على وحدانيته ودليل على كمال قدرته فى إحياء الموتى بما يشاهدونه من إخراج المحرق اليابس من العود الندى الرطب. وذلك أن الكافر قال: النطفة حارة رطبة بطبع الحياة فخرج منها الحياة، والعظم بارد يابس بطبع الموت فكيف تخرج منه الحياة؟ فأنزل الله تعالى: الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا أي أن الشجر الأخضر من الماء، والماء باردرطب ضد النار وهما لايجتمعان، فأخرج الله منه النار، فهو القادر على إخراج الضد من الضد وهو على كل شيء قدير[٣].وفى أمثالهم فى كل شجر نار واستمجد المرخ والعفار[٤].

إنها لعجيبة من العجائب التى يمرون عليها غافلين، عجيبة تكمن في أن هذا الشجر الأخضر الريان بالماء يحتك بعضه ببعض فيولد نارا، ثم يصير هو وقود النار بعد اللدونة والاخضرار[٥].

---

(١) الآيات ٧٨-٨١ يس

(٢) تفسير القرآن العظيم جـ٣، ص ٦٠١

(٣) أحكام القرآن جـ١٥، ص٥٨، ومابعدها

(٤) الكشاف،جـ٣،ص ٣٣٢

(٥) فى ظلال القرآن، جـ ٢٣، ص٢٩٧٧

لقد كثر فى القرآن ايضاح الأمور المعنوية بالصور المرئية المحسوسة تلقى عليها أشعة الضوء، فتصبح شديدة الأثر، وهاهو ذا يلجأ إلى التمثيل فيصور به فناء هذا العالم الذى نراه مزدهرا أمامنا عامرا بألوان الجمال، فيخيل إلينا استمراره وخلوده، فيجد القرآن فى الزرع يرتوى من الماء فيصبح بهيجا نضرا يعجب رائيه، ولكن لايلبث أن يذيل ويصفر ويصبح هشيما تذروه الرياح. يجد القرآن في ذلك شبها لهذه الحياة الدنيا، ولقد أوجز القرآن مرة فى هذه التشبيه، وأطنب ليستقر معناه فى النفس ويحدث أثره فى القلب[1]. وهى مسألة مرتبطة بالبعث فمن يؤمن بفناء الحياة الدنيا يؤمن بأن هناك بعثا ثم حسابا.

ولنتأمل الآيات التى صور الله تعالى من خلالها قصر هذه الحياة التى تلهي الناس عن الآخرة.

يقول تعالى: إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ[2].

ضرب تبارك وتعالى مثلا لزهرة الحياة الدنيا وزينتها وسرعة انقضائها وزوالها بالنبات الذى أخرجه الله من الأرض بماء أنزل من السماء مما يأكل الناس من زروع وثمار على اختلاف أنواعها وأصنافها، وما تأكل الأنعام من أب وقضب وغير ذلك حتى إذا أخذت الأرض زينتها أي حسنت بما خرج فى رباها من زهور نضرة مختلفة الأشكال والألوان، ظن الذين زرعوها وغرسوها أنهم قادرون على جذاذها وحصادها فبينما هم كذلك، إذ جاءتها صاعقة أو ريح شديدة باردة فأيبست أوراقها وأتلفت ثمارها، ولهذا قال تعالى أتاها أمرنا

(١) من بلاغة القرآن، ص ٢٠٩

(٢) يونس ٢٤

ليلا أو نهـــــارا فجعلناها حصيدا أي يابسا بعد الخضرة والنضارة كأنم لم تغن بالأمس كأنها ماكانت شيئا قبل ذلك ثم قال تعالي كذلك نفصل الآيات أي نبين الحجج والأدلة لقوم يتفكرون.فيعتبرون بهذا المثل فى زوال الدنيا من أهلها سريعا مع اغترارهم بها وتمكنهم وثقتهم بمواعيدها، ونقلتها عنهم فإن من طبيعتها الهرب ممن طلبها والطلب لمن هرب منها[١].

والمعنى البلاغى يجمله صاحب الكشاف بقوله: شبهت حال الدنيا فى سرعة تقضيها وانقراض نعيمها بعد الإقبال بحال نبات الأرض في جفافه وذهابه حطاما بعدما التف وتكاثف وزين الأرض بخضرته. وفى قوله تعالى أخذت الأرض زخرفها وازينت كلام فصيح، جعلت الأرض آخذة زخرفها على التمثيل بالعروس إذا أخذت الثياب الفاخرة من كل لون فاكتستها وتزينت بغيرها من ألوان الزينة[٢].

وهذا بيان قد أخرج مالم تجر به عادة إلى ماجرت به وقد اجتمع المشبه والمشبه به فى الزينة والبهجة ثم الهلاك بعده. وفى ذلك العبرة لمن اعتبر، والموعظة لمن تفكر فى أن كل فانٍ حقيرٌ وإن طالت مدته وصغير وإن كبر قدره[٣].

وصورة أخرى للحياة الدنيا تمثل قصتها ببريقها ولمعانها وجمالها وفتنتها، حيث ينطفى البريق واللمعان ويخفت نور الجمال وتتلاشى لذة الفتنة.

يقول تعالى: وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا[٤].

---

(١) تفسير القرآن العظيم جـ٢، ص ٤٢٢

(٢) جـ٢، ص ٢٣٣. وانظر مفاتيح الغيب، جـ١٧، ص ٧٦.

(٣) النكت فى اعجاز القرآن، ص ٨٤

(٤) الكهف ٤٥

قال فخر الدين الرازى: اعلم أن المقصود: اضرب لهم مثلا أخر يدل على حقارة الدنيا وقلة بقائها، والكلام متصل بما تقدم من قصة المشركين المتكبرين على فقراء المؤمنين، فقال (واضرب لهم) أي لهؤلاء الذين افتخروا بأموالهم وأنصارهم على فقراء المسلمين (مثل الحياة الدنيا) ثم ذكر المثل فقال (كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض) وحينئذ يربو ذلك النبات ويهتز ويحسن منظره.. وبعد ذلك جف ذلك النبات وصار هشيما وهو النبت المتكسر المتفتت وإذاصار النبات كذلك طيرته الرياح وذهبت بتلك الأجزاء إلى سائر الجوانب (وكان الله على كل شيء مقتدرا) بتكوينه أولا وتنميته وسطا وإبطاله آخرا، وأحوال الدنيا أيضا كذلك تظهر أولافى غاية الحسن والنضارة ثم تتزايد قليلا قليلا ثم تأخذ فى الانحطاط إلى أن تنتهى إلى الهلاك والفناء، ومثل هذا الشيء ليس للعاقل أن يتبهج به[١].

إنها صورة شبه القرآن من خلالها حال الدنيا فى نضرتها وبهجتها وما يتعقبها من الهلاك والفناء بحال النبات يكون أخضر وارفا ثم يهيج فتطيره الرياح كأن لم يكن[٢].

ومن دلالات التنويع فى الأمثال القرآنية،يسوق القرآن مثلا للقلب الإنسانى، إذ يشبه فى القرآن بالأرض الطيبة أو التربة الطيبة. والقلب الخبيث يشبه بالأرض الخبيثة أو التربة الخبيثة."فكلاهما القلب والتربة منبت زرع، ومأتى ثمر. القلب ينبت نوايا ومشاعر، وآثارا فى واقع الحياة. والأرض تنبت زرعا وثمرا مختلفا أكله وألوانه ومذاقاته وأنواعه. والهدى ينزل على القلب كما ينزل الماء على التربة. فإن كان طيبا كالبلد الطيب، تفتح واستقبل، وزكا وفاض بالخير، وإن كان فاسدا شريرا كالذى خبث من البلاد، استغلق وقسا واخرج الشوك والأذى كما تخرج الأرض النكدة[٣].

---

(١) مفاتيح الغيب جـ٢١، ص ١٣٠

(٢) الكشاف جـ٢، ص٤٨٦

(٣) فى ظلال القرآن جـ٨، ص ١٣٠٠

يقول تعالى: وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ[١].

فهذا مثل لمن ينجع فيه الوعظ والتنبيه من المكلفين ولمن لايؤثر فيه شيء من ذلك.وعن قتادة المؤمن سمع كتاب الله فوعاه بعقله وانتفع به، كالأرض الطيبة أصابها الغيث فأنبتت والكافر بخلاف ذلك.

وهذا التمثيل واقع على أثر ذكر المطر، وإنزاله بالبلد الميت. وإخراج الثمرات به على طريق الاستطراد، ومثل ذلك التصريف نكرر الآيات لقوم يشكرون نعمة الله وهم المؤمنون ليفكروا فيها ويعتبروا بها[٢].

وشبه نزول القرآن بنزول المطر، وشبه المؤمن بالأرض الخيرة التى نزل عليها المطر فيحصل فيها أنواع الأزهار، والثمار، وأما الأرض السبخة فهي وإن نزل عليها المطر لم يحصل فيها من النبات إلا النزر القليل. فكذلك الروح الخبيثة فهى وإن اتصل بهانور القرآن لم يظهر فيها من المعارف والأخلاق الحميدة إلا القليل[٣].

إنها لمقارنة بين فريقين موجودين فى مكة وقت نزول القرآن، فريق مؤمن يتبع محمدا صلى الله عليه وسلم وفريق كافر يتبع هواه.

وفى سياق الطيب والخبيث يضرب الله تعالى مثلا للكلمة الطيبة،ومثلا للكلمة الخبيثة "الكلمة الطيبة كلمة الحق كالشجرة الطيبة ثابتة مثمرة لاينقطع ثمرها لأن بذورها تنبت فى النفوس المتكاثرة آنا بعد آن. والكلمة الخبيثة كلمة الباطل كالشجرة الخبيثة قد تهيج

(١) الأعراف ٥٨
(٢) الكشاف جـ٢، ص ٨٤
(٣) مفاتيح الغيب جـ١٤، ص١٥٠

وتتعالى وتتشابك، ولكنها تظل هشة وتظل جذورها فى التربة قريبة حتى لكأنها على وجه الأرض، وما هى إلا فترة ثم تجتث من فوق الأرض فلا قرار لها ولابقاء[١].

يقول تعالى: أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ. تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ[٢].

ووجه تشبيه الكلمة الطيبة- بمعنى شهادة أن لا إله إلا الله- بهذه الشجرة المنعوتة بما ذكر، أن أصل تلك الكلمة ومنشأها وهوالإيمان ثابت فى قلوب المؤمنين، وما يتفرع منها وينبني عليها من الأعمال الصالحة والأفعال الزكية يصعد إلى السماء وما يترتب على ذلك من ثواب الله تعالى ورضاه هو الثمرة التى تؤتيها كل حين[٣].

وذكر بعضهم فى هذا المثل كلاما لايخلو عن حسن، وهو إنما مثل سبحانه الإيمان بالشجرة لأن الشجرة لاتستحق أن تسمى شجرة إلا بثلاثة أشياء: عرق راسخ، وأصل قائم، وأغصان عالية. فكذلك الإيمان لايتم إلا بثلاثة أشياء: معرفة فى القلب،وقول باللسان، وعمل بالأركان[٤].

ويقول تعالى: وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ. يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ[٥].

---

(١) فى ظلال القرآن جـ١٣، ص ٢٠٩٩

(٢) ابراهيم ٢٤-٢٥

(٣) روح المعانى جـ١٣، ص ٢١٤

(٤) نفس المصدر جـ١٣، ص ٢١٧

(٥) إبراهيم ٢٦-٢٧

وهذا مثل ثان ذكر تبارك وتعالى فيه شجرة أيضا إلا أنه تعالي وصفها بثلاث صفات: الصفة الأولي كونها خبيثة، وذلك يحتمل أن يكون بحسب الرائحة، وأن يكون بحسب الطعم، وأن يكون بحسب الصورة، وأن يكون بحسب اشتمالها. على المضار الكثيرة. ولا حاجة إلى القول بأنها شجرة كذا وكذا ،فإن الشجرة الجامعة لتلك الصفات وإن لم تكن موجودة إلا أنها إذا كانت معلومة الصفة كان التشبيه بها نافعا فى المطلوب. والصفة الثانية: اجتثاثها من فوق الأرض، وهذه فى مقابلة أصلها ثابت فى الشجرة الأولى. والصفة الثالثة نفى أن يكون لها قرار وهذه كالمتممة للصفة الثانية، والمراد بالكلمة المشبهة بذلك الجهل بالله تعالى، فخبثه أظهر من أن يخفى، وليس له حجة ولاثبات، ولاقوة بل هو داحض غير ثابت[1].

ولاشك أن هناك مثلا عظيما فى سورة الكهف استغل فيه النبات لإبراز قدرة الله تعالى وهذا المثل ورد فى شكل قصة. وفى هذا المثل نلحظ مقارنة بين رجلين. أحدهماله جنتان فيهما من كل صنوف النبات، بالإضافة إلى الأنهار التى تجرى خلال هاتين الجنتين. ورغم ذلك لم يحمد هذا الرجل ربه على هذه النعم الكثيرة وافترى وتجبر وعلا فى الأرض. أما الآخر فكان رجلا فقيرا لايملك مثل تلك الجنات ورغم ذلك كان شاكرا لله حامدا له على نعمه، وآلائه. فكان عقاب الله لأولهما مريرا حيث أذهب كل مايملك ، ولم يبق له منه شيئا، جزاء له على كفره و عناده.

يقول تعالى: وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا. كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا. وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا. وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا. وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا. قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ

(١) روح المعانى جـ١٣، ص ٢١٧

سَوَّاكَ رَجُلاً. لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً. وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالاً وَوَلَداً. فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً. أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْراً فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً. وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً. وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِراً. هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَخَيْرٌ عُقْباً[1].

فجنتا الرجل هنا فيهما نباتات كثيرة، فيهما أعناب ونخل، ثم زرع معطوف عليهما، وهذا مايسمي بعطف العام على الخاص، لأن الأعناب والنخل من الزرع، وهذا لذكر الشيء مرتين مرة بخصوصه، ومرة في عموم غيره. وكذلك لشرف ثمار الأعناب والنخيل عند العرب، وهذه الزروع أثمرت بفضل ما أمدها الله من أنهار، وعندما تجبر صاحب الجنتين، أصبح ولم يجد شيئا.

إنها قصة "تضرب مثلا للقيم الزائلة والقيم الباقية وترسم نموذجين واضحين للنفس المعتزة بزينة الحياة، والنفس المعتزة بالله،وكلاهما نموذج إنساني لطائفة من الناس. صاحب الجنتين نموذج للرجل الثري الذي نسي القوة الكبرى التي تسيطر على أقدار الناس، والحياة ويحسب هذه النعمة خالدة لاتفنى. وصاحبه نموذج للرجل المؤمن المعتز بإيمانه، الذاكر لربه، يرى النعمة دليلا على المنعم، موجبة لحمده وذكره لا لجحوده وكفره[2].

---

(١) الآيات ٣٢-٤٤

(٢) في ظلال القرآن جـ١٥، ص٢٢٧٠

ثانيا: فى القـران المدنـى

لاحظناأن القرآن المكى وردت فيه الأمثال التى كان النبات أحد عناصرها فى أكثر من موضع. وذلك لتقريب معنى الغيبيات التى لانعرفها ولانشاهدها من أذهاننا.

وفى القرآن المدنى ضرب المثل- والنبات أحد أطرافه-فى أمور كثيرة ، فى قمة الإيمان.. وحدانية الله، فى فناء الحياة الدنيا وقصرها، فى الإنفاق، فى نور الله تعالى الذى لانشهده وهو غيب عنا...

فمسألة فناء الحياة الدنيا، ضرب لها القرآن أكثر من مثل فى القرآن المكى، وقد رسم فى تلك الأمثلة بأسلوبه الفنى أكثر من لوحة تمثل قوة الدنيا الضعيفة، وخلودها الفانى، لعل ذوى الفطر السليمة يثوبون إلى بارئهم ويفيئون إلى ظلال الحق فيعملون للأولى والآخرة.

وفى القرآن المدنى "تسوق لنا سورة الحديد مثلا للحياة، أبان الدوافع التى تغرى أهل الدنيا بالإطمئنان إلى حياتهم، كما بين المثل سرعة زوال الدنيا وذهابها بعد أن شبهها بالنبات الذى ارتفع والتف وطال وتطاول حتى أعجب الزارعين والرائين، ثم سرعان ما أصفر بعد نضرة وذوى بعد قوة، ولم يلبث أن تهشم وتحطم، وتهاوى وتلاشى[1].

(١) الأمثال فى القرآن، ص٥١

يقول تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[١].

أراد أن الدنيا ليست إلا محقرات من الأمور وهى اللعب واللهو والزينة والتفاخر والتكاثر، وأما الآخرة فما هى إلا أمور عظام من العذاب الشديد، والمغفرة، ورضوان من الله. وشبه حال الدنيا وسرعة تقضيها مع قلة جدواها بنبات أنبته الغيث فاستوى واكتهل وأعجب به الكفار الجاحدون لنعمة الله فيما رزقهم من الغيث والنبات، فبعث الله عليه العاهة فهاج واصفر وصار حطا ما، عقوبة لهم على جحودهم[٢].

وهو مثل دال على زوال الدنيا وانقضائها وفراغها لا محالة، وأن الآخرة كائنة لامحالة[٣].

فهذا تشبيه قد أخرج مالم تجر به عادة إلى ماقد جرت به، وقد اجتمع المشبه والمشبه به فى شدة الإعجاب، ثم فى التغيير بالإنقلاب، وفى ذلك الاحتقار للدنيا والتحذير من الاغترار بها والسكون إليها[٤].

ولقد عرض القرآن صورتين لقصر الحياة الدنيا. من خلال آيتين مكيتين[٥]. ولعل هذا يخيل للبعض أن هناك تكرارا كاملا، ولكن الواقع أن هناك اختلافا دقيقا، إنه فى هذه الآية أطال عرض شريط الحياة الدنيا، كما يراه الكفار، فهى لعب ولهو وزينة وتفاخر بينهم، وتكاثر فى الأموال والأولاد، ليقول إن هذا الذى تعجبون به كله، وهذا الذى تستطيلون أمده،

---

(١) الحديد ٢٠

(٢) الكشاف جـ٤، ص٦٥

(٣) ابن كثير جـ٤، ص ٣١٣.

(٤) النكت فى اعجاز القرآن ص٨٤

(٥) راجع ص؟؟ من البحث

إنما هو فى حقيقته قصير زائل كذلك الغيث الذى يعجب الكفار نباته، ثم يهيج فتراه مصفرا ،ثم يكون حطاما[١].

ولايقتصر التمثيل بالنبات على ماذكرت ،ولكن هناك أمثالا قرآنية، رشحت النبات طرفا آخر للصورة، يظهر هذا في الآيات التى تحث على الإنفاق فى سبيل الله، وتشبيه، حال المنفقين فى زيادة أموالهم وتضاعف حسناتهم بحال النبات فى نموه واخراج ثمره.

وهى آيات لعب فيها التشبيه دوره فى التأثير فى النفس كى تسمح ببذل المال فى سبيل تخفيف أعباء المجتمع فقرر مضاعفة الثواب على مايبذل فى هذه الناحية يقول تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُم فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[٢].

أي مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل زارع زرع فى الأرض حبة فأنبتت الحبة سبع سنابل يعنى أخرجت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة فشبه المتصدق بالزارع وشبه الصدقة بالبذر،فيعطيه الله بكل صدقة له سبعمائة حسنة. ثم قال تعالى(والله يضاعف لمن يشاء) يعنى على سبعمائة،فيكون مثل المتصدق مثل الزارع، إن كان حاذقا فى عمله، ويكون البذر جيدا وتكون الأرض عامرة ويكون الزرع أكثر فكذلك المتصدق،إذا كان صالحا، والمال طيبا ويضعه فى موضعه فيصير الثواب أكثر[٣].

وهذا المثل أبلغ فى النفوس من ذكرعدد السبعمائة، فإن فيه إشارة، إلى أن الأعمال الصالحة ينميها الله عز وجل لأصحابها كما ينمى الزرع لمن بذره فى الأرض الطيبة[٤].

---

(١) التصوير الفني فى القرآن ص ١٠٩

(٢) البقرة ٢٦١

(٣) الجامع لأحكام القرآن جـ٣،ص٣٠٣

(٤) تفسير ابن كثير جـ١، ص ٣١٦.

وهذا التمثيل تصوير للأضعاف كأنها حاضرة بين يدى الناظر فهو من تشبيه المعقول بالمحسوس وفى ذكره الحبة فى التمثيل هنا إشارة إلى البعث وعظيم القدرة إذ من كان قادرا على أن يخرج من حبة واحدة فى الأرض سبعمائة حبة فهو قادر على أن يخرج الموتى من قبورهم بجامع اشتركا فيه من التغذية والنمو[١].

واتخاذ النبات طرفا ثانيا من أطراف الصورة فى الأمثال القرآنية دليل على أن الزرع من أعلى الحرف التى يتخذها الناس والمكاسب التى يشتغل بها العمال.

يقول تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[٢].

والمعنى كما يقول الزمخشرى: ومثل نفقة هؤلاء فى زكائها عند الله (كمثل جنة) وهى البستان(بربوة) أى بمكان مرتفع.وخصها بالذكر لأن الشجر فيها أزكى وأحسن ثمرا، أصابها وابل أي مطر عظيم القطر (فآتت أكلها ضعفين)أعطت ثمرتها مثلى ما كانت تثمر بسبب الوابل. فإن لم يصبها وابل (فطل) فمطر صغير القطر، يكفيها لكرم منبتها. أو مثل حالهم عند الله بالجنة على الربوة ونفقتهم الكثيرة والقليلة بالوابل والطل، وكما أن كل واحد من المطرين يضعف أكل الجنة، فكذلك نفقتهم كثيرة كانت أو قليلة بعد أن يطلب بها وجه الله زاكية عند الله زائدة فى زلفاهم وحسن حالهم عنده[٣].

واعترض فخر الدين الرازى على كلام المفسرين بشأن وقوع البستان على الربوة بقوله: واعلم أن المفسرين قالوا:البستان إذا كان فى ربوة من الأرض كان أحسن ثمرا وأكثر ريعا.

---

(١) روح المعانى، جـ٣، ص ٣٢، ومابعدها

(٢) البقرة ٢٦٥

(٣) الكشاف جـ١، ص ٣٩٥. وروح المعانى جـ٣،ص ٣٦.

(ولى فيه اشكال)[١] وهو أن البستان إذا كان فى مكان مرتفع من الأرض كان فوق الماء ولاترتفع إليه أنهار. وتضربه الرياح كثيرا فلا يحسن ريعه ، وإذا كان فى وهدة من الأرض انصبت مياه الأنهار، ولايصل إليه الرياح فلا يحسن ريعه أيضا. فإذن البستان إنما يحسن ريعه إذا كان على الأرض المستوية التى لاتكون ربوة ولا وهدة فإذن ليس المراد من هذه الربوة ما ذكروه. بل المراد منه كون الأرض طينا حرا. بحيث إذا نزل المطر عليه انتفخ وربا ،ونما ، فإن الأرض متى كانت على هذه الصفة يكثر ريعها ، وتكتمل الأشجار فيها.والله تعالى ذكر هذا المثل فى مقابلة المثل الأول (الصفوان) الذى لايؤثر فيه المطر، ولايربو ولاينمو بسبب نزول المطر عليه، فكان المراد بالربوة فى هذا المثل كون الأرض بحيث تربو وتنمو فهذا ما خطر ببالى والله أعلم بمراده[٢].

ولايعنينى اختلاف المفسرين بشأن البستان، وإنما يعنينى أن وجه الشبه يكمن فى "أن المنفق ابتغاء مرضاة الله هو فى سخاء نفسه، وقلبه كالجنة الجيدة التربة الملتفة الشجر العظيمة الخصب فى كثرة بره وحسنه. فهو يجود بقدر سعته،فإن أصابه خير كثير أغدق وأوسع فى الإنفاق، وإن أصابه خير قليل أنفق منه بقدر.. فالوابل والطل عبارة عن سعة الرزق وما دون السعة[٣].

وهذا المثل ضرب لمن أُنفق ماله لايبتغى إلا وجه الله، وأما من أعقب انفاقه بالمن والأذى، فإنه فى يوم القيامة يجدها محبطة. فيتحسر عند ذلك حسرة من كانت له جنة من أبهى الجنات وأجمعها للثمار، فبلغ الكبر، وله أولاد ضعاف، والجنة معاشهم فهلكت بالصاعقة[٤].

---

(١) الكلام لفخر الدين الرازى

(٢) مفاتيح الغيب جـ٧، ص ٦١

(٣) تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار جـ٣، ص٦٨

(٤) جامع البيان فى تفسير القرآن، الطبرى، جـ٥، ص ٥٤٣.

يقول تعالى : أَيَوَدُّ أَحَدُكُم أَن تَكُونَ لَه جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَه الْكِبَرُ وَلَه ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيه نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِك يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُم الْآيَاتِ لَعَلَّكُم تَتَفَكَّرُونَ(١).

إنها جنة بها من الخير الكثير، لكن صاحبها يصيبه الكبر، ولم تعد لديه فتوة الشباب، فأصبح محتاجا إلى ذلك الخير، وهكذا تكون نفسه معلقة بعطاء هذه الجنة، ليس لنفسه فقط، ولكن لذريته من الضعفاء.

فيأتى اعصار فيه نار فاحترقت الجنة، فأى حسرة يكون فيها الرجل؟! إنها حسرة شديدة. كذلك تكون حسرة من يفعل الخير رئاء الناس، أو من يتبع انفاقه بالمن والأذى .

وخص النخيل والأعناب بالذكر برغم ذكر (كل الثمرات) لأنهما كما قال الزمخشرى فى كشافه أكرم الشجر وأكثرها منافع، ولأن الآية نزلت على أهل المدينة، وهم أهل زراعة، وكانت زراعتهم من النخيل والأعناب، لذا فهم يعرفون قدر هذين النوعين من الفواكه، وكانت وجوه انفاقهم من ثمارهما.

وإذا كان هذا المثل لمن رادى بصدقته وهو مؤمن، فبماذا شبه القرآن من ينفق ماله وهو كافر؟ آية قرآنية فى سورة آل عمران تحمل اجابة عن هذا السؤال.

يقول تعالى: مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْه، وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ(٢).

---

(١) البقرة ٢٦٦

(٢) الآية ١١٧

والمراد من هذا المثل كما قال أبوالسعود فى تفسيره هو تشبيه ما أنفقوا فى ضياعه وذهابه بالكلية من غير أن يعود إليهم نفع ما بحرث كفار ضربته صر واستأصلته ولم يبق لهم فيه منفعة ما بوجه من الوجوه[١].

لقد رسم القرآن صورة الحرث تأخذه الريح فيها برد يضرب الزرع والثمار فيهلكها فلا ينال صاحب الحرث منه ما كان يرجو بعد الجهد فيه، كالذي ينفق ماله وهو كافر، ويرجو الخير فيما أنفق فيذهب الكفر بما كان يرجوه[٢].

ولاشك أن من أروع الأمثال القرآنية مثلا يصور الله من خلاله استقرار نوره وإيمانه فى قلب المؤمن. حيث شبه هذا الإيمان أو هذا الفيض الإلهى بفتيلة مضيئة داخل مصباح، والمصباح داخل زجاجة، فهذه صورة ثم يشبه هذه الصورة بصورة أخرى تتمثل فى الكوكب اللؤلؤى الذى يستمد ضوءه من شجرة لايحدد مكانها ولازمانها. وهى صورة لايستطيع الإنسان رؤيتها أو لمسها ولكنه يستطيع بذوقه وحسه وإيمانه أن يتخيلها، بكل أجزائها وعناصرها التى لايغنى أحدها عن الآخر.

يقول تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[٣].

فلشجرة الزيتون دور أساس فى هذا المثل، تمثل فى أنه بعد تكوين هذه الصورة كلها وتشبيهها بالكوكب.ذكر أن هذا الكوكب يستمد ضوءه من زيت هذه الشجرة المباركة بقدرة

---

(١) جـ١ ،ص ٤٠٤. ومفاتيح الغيب جـ٨، ص ٢١١.

(٢) التصوير الفنى، ص ٣٨.

(٣) النور ٣٥

الله، وكأن هذه الشجرة عين جارية تمد هذا الكوكب بما يحتاجه من وقود لازم لبقائه. كل ذلك دون أن تمسها نار. وخيالنا يبرزها لنا شجرة موجودة بين كوكبة من الأشجار تلفحها أشعة الشمس المحرقة، ولكن هذه الزيتونة تتحاماها هذه الكوكبة من الأشجار فلا يصل إليها ضوء الشمس، ورغم ذلك يستفاد بزيتها(*).

وللإمام الغزالى تفسير لهذه الآية، إذ قسم عالم الأواح البشرية خمسة أقسام هى الروح الحساس، والروح الخيالى، والروح العقلى، والروح الفكرى، والروح القدسى. ومثل لكل روح منها بعنصر من عناصر هذا المثل. فمثل للروح الحساس بالمشكاة وللروح الخيالى بالزجاجة. وللروح العقلى بالمصباح.وأما الروح الفكرى فمثل له بالشجرة، وذكر له تفسيرا فلسفيا عميقا يجدر أن أسوقه لنتعرف على رؤية الغزالى لهذه الشجرة.

يقول الغزالى: وأما الروح الرابع وهو الروح الفكرى فمن خاصيته أنه يبتدىء من أصل واحد ثم تتشعب منه شعبتان، ثم من كل شعبة شعبتان وهكذا إلى أن تكثر الشعب بالتقسيمات العقلية، ثم يفضى بالآخرة إلى نتائج هى ثمراتها. ثم تلك الثمرات تعود فتصير بذورا لأمثالها. إذ يمكن أيضا تلقيح بعضها بالبعض حتى يتمادى إلى ثمرات ورا ءها. فبالحرى أن يكون مثاله من هذا العالم الشجرة. وإذا كانت ثمراته مادة لتضاعف أنوار المعارف وثباتها وبقائها فبالحرى ألا تمثل بشجرة السفرجل والتفاح والرمان وغيرها، بل من جملة سائر الأشجار بالزيتونة خاصة : لأن لب ثمرها هو الزيت الذى هو مادة المصابيح، ويختص من سائر الأدهان بخاصية زيادة الإشراق مع قلة الدخان. وإذا كانت الماشية التى يكثر نسلها و الشجرة التى تكثر ثمرتها تسمى مباركة فالتى لايتناهى ثمرتها إلى حد محدود أولى أن تسمى شجرة مباركة. و إذا كانت شعب الأفكار العقلية المحضة خارجة عـــن قبول الإضافة إلى الجهات والقرب والبعد، فبالحرى أن تكون لاشرقية ولاغربية.

(*) فسر ابن تيمية سورة النور وأفردها بكتاب مستقل لكنه لم يذكر شيئا فى شأن شجرة الزيتون. أنظره، ص ١٧٤-١٩٦. نشر دار الوعى -حلب ط١، ١٩٧٧.

وأماالخامس: وهوالروح القدسى النبوى المنسوب إلى الأولياء إذا كان فى غاية الصفاء والشرف وكانت الروح المفكرة منقسمة إلى مايحتاج إلى تعليم وتنبيه ومدد من خارج حتى يستمر فى أنواع المعارف، وبعضها يكون فى شدة الصفاء كأنه يتنبه بنفسه من غير مدد من خارج فبالحري أن يعبر عن الصافى البالغ الاستعداد بأنه يكاد زيته يضىء ولو لم تمسسه نار[١].

ونور زيت الزيتون كان أصفى نور يعرفه المخاطبون، ولكن ليس لهذا وحده كان اختيار هذا المثل. إنما هو كذلك الظلال المقدسة التى تلقيها الشجرة المباركة.ظلال الوادى المقدس فى الطور،وهو أقرب منابت الزيتون لجزيرة العرب. وفى القرآن إشارة لها (وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين[*])وهى شجرة معمرة كل مافيها مما ينفع الناس، زيتها وخشبها وورقها وثمرها، وهى شجرة ليست متميزة إلى مكان أوجهة. إنما هى مثل مجرد للتقريب (لاشرقية ولاغربية)، وزيتها ليس زيتامن هذا المشهود المحدود. إنما هو زيت آخر عجيب (يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار)فهو من الشفافية بحيث يضىء بغير احتراق. (نور على نور) وبذلك نعود إلى النور العميق الطليق فى نهاية المطاف[٢].

وهذا المثال إنما يتضح لقلوب المؤمنين أو لقلوب الأنبياء والأولياء لا لقلوب الكفار: فإن النور يراد للهداية. فالمصروف عن طريق الهدى باطل وظلمة، بل أشد من الظلمة: لأن الظلمة لا تهدى إلى الباطل، كما لاتهدى إلى الحق. وعقول الكفار انتكست وكذلك سائر إدراكاتهم وتعاونت على الإضلال فى حقهم[٣].

ويجد القرآن فى الزرع، وقد نبت ضئيلا ضعيفا، ثم لايلبث ساقه أن يقوى بما ينبت حوله من البراعم، فيشتد بها ساعده ويغلظ حتى يصبح بهجة الزارع وموضع إعجابه، يجد

(١) أبو حامد الغزالى مشكاة الأنوار ، ص ٧٩، ومابعدها بتصرف تحقيق.د. أبو العلا عفيفى، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٧٣.

(*) راجع ص٩٥ من هذا البحث.

(٢) فى ظلال القرآن، جـ١٨، ص ٢٥٢٠

(٣) مشكاة الأنوار، ص ٨٢

فى ذلك صورة شديدة المجاورة لصورة أصحاب محمد ، فقد بدأوا ضعافا قلة، ثم أخذوا فى الكثرة والنماء، حتى اشتد ساعدهم، وقوى عضدهم، وصاروا قوة تملأ قلب محمد بهجة، وقلب الكفار حقدا و غيظا[١].

يقول تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[٢].

قال الزمخشرى: هذا مثل ضربه الله لبدء أمر الإسلام وترقيه فى الزيادة إلى أن قوى واستحكم، لأن النبى-صلى الله عليه وسلم- قام وحده ثم قواه الله بمن آمن معه، كما يقوى الطاقة الأولى من الزرع ما يحتف بها مما يتولد منها حتى يعجب الزراع. فإن قلت: قوله (ليغيظ بهم الكفار) تعليل لماذا،؟ قلت: لما دل عليه تشبيههم بالزرع من نمائهم وترقيهم فى الزيادة والقوة[٣].

والصورة كما نلاحظ فى شقيها المشبه والمشبه به ملموسة محسوسة. وإن كان وجه الشبه بين الطرفين معنويا، وفى ذلك تكمن قيمتها، ويكمن الإعجاز القرآنى القادر على استخراج المعنوى من بين ثنايا المادى.

حقا إنه لوصف دقيق للرسول صلى الله عليه وسلم، والمؤمنين من حوله وهم فى حالة تعاضد وتماسك مثل هذه الكوكبة من النباتات التى يشد بعضها من أزر بعض.

---

(١) من بلاغة القرآن، ص ١٩٧.

(٢) الفتح الآية ٢٩

(٣) الكشاف جـ٣، ص ٥٥١، وانظر : القرطبى، جـ١٦، ص ٢٩٥. والألوس جـ٢٦، ص ١٢٧.

الفصل السادس
النبات في القصص القرآني

١- في قصة آدم عليه السلام.

٢- في قصة موسى.

٣- في قصة مريم.

٤- في قصة يوسف.

٥- في قصة يونس.

٦- في قصة ابراهيم.

٧- في سيرة محمد ﷺ .

٨- قصة اصحاب الجنة.

٩- سبأ وجناتهم.

الفصل السادس

النبات فى القصص القرآنى

مدخل:

القصة فى القرآن ليست عملا فنيا مستقلا فى موضوعه وطريقة عرضه، وإدارة حوادثه،كما هوالشأن فى القصة الفنية الحرة، التى ترمى إلى أداء غرض فنى مجرد. إنما هى وسيلة من وسائل القرآن الكثيرة إلى تحقيق هدفه الأصيل.والقرآن كتاب دعوة دينية قبل كل شىء والقصة إحدى وسائله لإبلاغ هذه الدعوة وتثبيتها.شأنها فى ذلك شأن الأدلة التى يسوقهاعلى البعث وعلى قدرة الله، وشأن الشرائع التى يفصلها والأمثال التى يضربها.

وقد خضعت القصة القرآنية فى موضوعها وفى طريقة عرضها وإدارة حوادثها لمقتضى الأغراض الدينية. والتعبير القرآنى يؤلف بين الغرض الدينى والغرض الفنى فيما يعرضه من الصور والمشاهد، ويجعل الجمال الفنى أداة مقصودة للتأثير الوجدانى[1].

وقد بين الله أثر القصص فى نفوس الصالحين من أولى الألباب فقال : لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ[2].

وليس القصص في واقعة إلا قطعا حية من دنيا الناس، تفصل منها على قدر حالها، إذ الأحياء تضطرب والأحداث تعتمل والأضداد تصطرع، والمشاعر تتجلى والعواقب تتوالى، على ما قدرلها أن تكون،وما أشبه القصص حين تمد أطرافه، وتفصل أحداثه بعمل البيئة فى أهلها، فهو يصرفهم عن كل ما يحيط بهم، وينقلهم من بيئتهم إلى بيئة أخري يعدها لهم ليعيشوا بين أهلها، ويشاهدوا كيف تسير الحياة بينهم وتجرى أحداثها عليهم، لايقيدها زمان

(١) التصوير الفنى فى القرآن ص ١١٩

(٢) من الآية١١١من سورة يوسف

ولا يجمعها مكان محدود ،يلتقى فيها الماضى البعيد والحاضر العتيد، ويتراءى المستقبل المرتقب. ويجتمع المشرق والمغرب والسماء والأرض وكل بمكان لايريم[١].

وقد جعل الله لأهل مكة قصصا ولأهل المدينة قصصا لأن هؤلاء غير أولئك عقيدة وجبلة.أهل مكة عبدة أوثان طال عهدهم بها وصحبتهم لها، أجيالا متتابعة ، فقست قلوبهم، وران عليهم الضلال والجحود، فما تصلح حالهم على المحاجة وحدها، ولكن على الزجر والوعيد، والاسترهاب،كد أب كل قوم متعجرف جهول،لذلك يغلب فى قصصهم ذكر الأمم البائدة التى خالفت عن أمر الله وكذبت رسله، فكان عاقبة أمرها وبالاً وخسرا وإذ يلتقى فى قصصهم جمع من تلك الأمم وما نزل بها من بأس الله[٢].

أما أهل المدينة فكانوا أهل كتاب، جاءتهم الرسل من قبل ودعوهم إلى الله فآمن من آمن، وأعرض من أعرض، فهم أجدر أن يعلموا أن للناس إلها. وأنه سبحانه قد أرسل إليهم رسلا من أنفسهم يستنقذونهم من الضلال[٣].

ويســـــاق القصص في القرآن بعامة للعبرة والموعظة أو للقدرة وتثبيت العزيمة أو للتعليم والهداية.

ولما كان السياق متعلقا بالحديث عن النبات فى القرآن فمن الملائم أن أتحدث عن دور النبات في القصة القرآنية. حيث إن هناك قصصا لعب النبات فيها دورا أساسيا بحيث يبدو وكأنه عنصر أساسى من عناصر القصة لاتقوم ولاتتشكل بدونه.

---

(١) على النجدى ناصف. مع القرآن، ص ٢٤

(٢) المرجع السابق، ص ٢٤

(٣) نفسه، ص ٢٧

وفى هذا السياق تطالعنا شجرة آدم التى أبهم القرآن تحديد نوعها، ففتح هذا الإبهام للمفسرين بابا تسربت منه أقوال أكثرها منقول عن أهل الكتاب كما تطالعنا عصا موسى التى اتخذها من الشجر، ونخلة مريم،وسنابل فرعون مصر التى أول يوسف رؤياها، وجنات سبأ التى بدلها الله لكفرهم بالخمط والأثل والسدر القليل، ودباء يونس التى أظلته بعد أن نبذ فى العراء وهو سقيم.

١- آدم والشجرة:

قصة أدم عليه السلام أول قصة قرآنية لعب فيها النبات دور ا كبيرا، حيث تسببت شجرة فى خروجه من الجنة وهبوطه إلى الأرض.

والقرآن الكريم تحدث فى سور متعددة عن أن الله تعالى قد أمر آدم وزوجه بأن يسكنا الجنة وأباح لهما أن يأكلا من جميع ثمارها، سوى شجرة واحدة نها هما عن الأكل منها، ولكن ابليس أغراهما بالأكل منها واستطاع بوسوسته و خداعه أن ينسيهما مانهاهما عنه ربهما وقال لهما إن ربكما لم ينهكما عن الأكل من هذه الشجرة إلا لأن الأكل منها يجعلكما من الملائكة أو تكونا خالدين. ولايقرب الموت والفناء ساحتكما حتى نسى آدم أنه عدوه الذى أبى السجود له، وأن الله حذره منه أشد التحذير. فأكل أدم وحواء من الشجرة (فبدت لهما سوءاتها وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة) ليسترا عورتيهما ويجعلا ورق الشـــجر على هيئة الثوب الساتر. وعاتب الله آدم على مخالفته أمره، والأكل من الشجرة فندم أدم وأخذ يعتذر فطرده هو وحواء من الجنة وطرد ابليس ثم تاب عليهما وهداهما وبقيا فى الأرض[1].

يقول تعالى: وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ. فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِـــنْ

(١) قصص الأنبياء،عبد الوهاب النجار، مكتبة دار التراث، ص ٢٠

سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ. وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ. فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ. قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ. قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ[١].

وقد اختلف فى الجنة التى أسكنها آدم أهى فى السماء أو فى الأرض، فالأكثرون على الأول.. وأما قوله (ولا تقربا هذه الشجرة)، فهو اختبار من الله وامتحان لآدم، وقد اختلف فى هذه الشجرة فقيل هى الكرم وقيل هى الحنطة وقيل هى السنبلة والبر، والتينة والنخلة.

فهذه أقوال ستة فى تفسير هذه الشجرة. قال أبو جعفر بن جرير: والصواب فى ذلك أن يقال إن الله عز وجل ثناؤه نهى آدم وزوجته عن أكل شجرة بعينها من أشجار الجنة دون سائر أشجارها فأكلا منها ولاعلم عندنا بأي شجرة كانت على التعيين لأن الله لم يضع لعباده دليلا على ذلك فى القرآن ولامن السنة الصحيحة... وجائز أن تكون واحدة منها وذلك علم إذا علم لم ينفع العالم به علمه وإن جهله جاهل لم يضره جهله به، وكذلك رجح الإبهام الرازى فى تفسيره وغيره وهو الصواب[٢].

واختلف فى معصية آدم بأكله من الشجرة على أي وجه وقعت منه على أربعة أقاويل:[٣].

---

(١) الأعراف، ١٩-٢٤

(٢) ابن كثيرجـ١ ، ص ٧٨ وما بعدها بتصرف

(٣) النكت والعيون الشهير بتفسير الماوردى جـ١، ص ١٠٦. دار الكتب العلمية. بيروت، ط١، ص ١٩٩٢م

أحدهـا: أنه أكل منهـا وهو ناس للنهى لقولـه تعالـى: وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ[١].

والثانى: أنه أكل منها وهو سكران فصار مؤاخذا بما فعله فى السكر وإن كان غير قاصد له كما يؤاخذ به لو كان صاحيا.

والثالث:أنه أكل منها عامدا عالما بالنهى.

والرابع: أنه أكل منها علي جهة التأويل فصار عاصيا بإغفال الدليل لأن الأنبياء لايجوز أن تقع منهم الكبائر[٢].

وشبيه بهذه الآيات فى بيان سكنى آدم الجنة، وإغواء الشيطان له مما ترتب عليه خروجه من الجنة قوله تعالى فى سورة البقرة: وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ. فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ. فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ. قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ[٣].

فآدم عاش فى جنة تمده بمقومات حياته بلا كد أو عمل، وكان فى الجنة أشجار كثيرة تعطى كل الثمرات، وهى حلال لآدم وحواء يأكلان منها ما يشاءان... ماعدا شجرة واحدة هى التي تسببت فى وقوع آدم في الخطيئة، إذ حاول ابليس اقناعهما بأن عدم الأكل من هذه الشجرة، يحرمهما من أن يكونا ملكين أو يكونا خالدين.

---

(١) طه ١١٥

(٢) والثالث من الأقوال أظهر كما رجحه ابن القيم فى اغاثة اللهفان جـ١، ص ١١٣

(٣) الآيات ٣٥-٣٨.

ومن دقة التعبير اللغوى للقرآن أنه قال "ولا تقربا هذه الشجرة" ولم يقل "ولا تأكلا من هذه الشجرة" وهذا رحمة بآدم وزوجه، لأنه لو قال "ولا تأكلا؛ لأباح لهما الاقتراب منها، فتجذبهما بجمالها، وثمارها، وتمتد أيديهما إلى الشجرة ليأكلا منها.

يقول تعالى: فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى. فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى[1].

لقد أكل آدم وحواء من الشجرة، فلم يخلدا ولم يأت لهما الملك الذى لاينتهى. بل ظهرت عوراتهما، وعرفا أن ابليس كاذب..وأن الله تعالى بما نهاهما عنه إنما أراد لهما الخير.

إن قصة الشجرة المحرمة ووسوسة الشيطان باللذة، ونسيان العهد بالمعصية و الصحوة من بعد السكرة، والندم، وطلب المغفرة، هى هى تجربة البشرية المتجددة المكرورة، وهذه التجربة كانت تربية واعدادا لهذا الخليفة، كانت ايقاظا للقوى المذخورة فى كيانه، كانت تدريبا له على تلقى الغواية، وتذوق العاقبة، وتجرع الندامة[2].

٢- موسى:

من أبرز سمات القصة القرآنية أن فيها العبرة والعظة. والعبرة والعظة نستخلصهما من قصة موسى مع فرعون عندما أخذته العزة بنفسه وغره بالله الغرور، وتجبر وعلا فى البلاد وأكثر فيها الفساد، فأنزل الله به عقابا مريرا، أودى بحياته ومن تبعه من قومه.

---

(١) طه ١٢٠-١٢١

(٢) في ظلال القرآن جـ١، ص ٥٩.

وقصة موسى تتشعب إلى عدد من القصص، وفى كل قصة منها نلمس دور النبات، وتصوير القرآن لهذا الدور بما يلائم القصة التى ورد بين ثناياها.

فمثلا عصا موسى الشجرية لها دور بارز في حياته، إذ كان يتوكأ عليها ويسقط بها ورق الشجر كى تأكله غنمه، بالإضافة إلى المآرب الأخرى التى يستخدم فيها موسى عصاه.

يقول تعالى :وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَامُوسَىٰ. قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ[1].

أي أتحامل عليها فى المشي والوقوف. وأضرب بها أغصان الشجر ليسقط ورقها فيسهل على غنمى تناوله فتأكله.

وتعرض قوم لتعديد منافع العصا منهم ابن عباس قال: إذا انتهيت إلى بئر فقصر الرشا وصلته بالعصا، وإذا أصابنى حر الشمس غرزتها في الأرض وألقيت عليها ما يظلنى، واذا خفت شيئا من هوام الأرض قتلته بها، وإذا مشيت ألقيتها على عاتقي وعلقت عليها القوس والكنانة والمخلاة[2].

لقد ذكر موسى علي التفصيل والإجمال المنافع المتعلقة بالعصا كأنه أحس بما يعقب هذا السؤال من أمر عظيم يحدثه الله فقال: ماهي إلا عصا لا تنفع إلا منافع بنات جنسها، وكما تنفع العيدان، ليكون جوابه مطابقا للغرض الذى فهمه من فحوى كلام ربه[3].

---

(١) طه ١٧-١٨

(٢) الجامع لأحكام القرآن جـ١١، ص ١٨٧

(٣) الكشاف جـ٢، ص ٥٣٣

والله تعالى إنما سأل موسي ليريه عظم ما يخترعه في الخشبة اليابسة من قلبها حية، وليقرر في نفسه المباينة البعيدة بين المقلوب عنه والمقلوب إليه، وينبهه على قدرته الباهرة[١].

قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى. فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى. قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى[٢].

فهذا برهان من الله تعالى لموسى عليه السلام ومعجزة عظيمة وخرق للعادة باهر، دل على أنه لايقدر على مثل هذا إلا الله عز وجل وأنه لايأتى به إلا نبى مرسل.

وكان هذا تمهيدا لتكليف موسى بمهمة كبرى مع فرعون، إذ تحدى فرعون وسحرته بعصاه تلك وتغلب عليهم ودعاهم إلي عبادة الله الذى خلق الأشياء، وجعل الأرض مهادا، والسماء سقفا محفوظا، وسخر السحاب والأمطار لرزق العباد، والدواب والأنعام.

يقول تعالى: الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى. كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَىٰ[٣].

ورغم هذه الأدلة على قدرة الله، لم يؤمن القوم ولم يؤمن فرعون فعاقبهم الله تعالى، ولم يمهلهم حتى حولهم من حال إلى حال إلى أن حل بهم عذاب الاستئصال.

يقول تعالى: وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ[٤].

قال الماوردى: قوله تعالى : ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين فيه قولان:

---

(١) الكشاف جـ٢، ص ٥٣٣

(٢) طه ١٩-٢١

(٣) طه ٥٣-٥٤

(٤) الأعراف، ١٢٩

أحدهما: يعنى الجوع
والثانى: أن معنى السنين الجدوب.

والعرب تقول: أخذتهم السنة إذا قحطوا وأجدبوا[١].
وجملة معنى الآية أنه تعالى أخذ آل فرعون بالجدب وضيق المعيشة لعلهم يتذكرون ضعفهم أمام قوة الله، ولعلهم إذا تذكروا واتعظوا رجعوا عن ظلمهم لبنى اسرائيل وأجابوا دعوة موسى عليه السلام[٢].

وهذا الذى حدث لفرعون وقومه في أرض مصر المخصبة المعطاء" ظاهرة تلفت النظر وتهز القلب وتدعو إلى التفكر لولا أنهم لايريدون أن يتفكروا ولايريدون أن يروايد الله فى جدب الأرض ونقص الثمرات[٣].

وللنبات فى قصة موسى دور آخر يظهر عندما خرج موسى بينى اسرائيل من مصر وعبر بهم البحر إلى سيناء فقد شاء الله تعالى ألا يسلمهم هناك إلى وهج الشمس، وتضور الجوع وحرقة العطش، فظلل عليهم الغمام، ورزقهم المن والسلوى، يصيب كل امرىء منهما ما يشاء، وأمر موسى أن يضرب بعصاه الحجر فتفجر منه الماء، فيسر الله لهم أسباب الحياة فى هذه البرية القاحلة، لكنهم قوم فى طباعهم الحاح ويبدو أن غاشية من البطر قد غشيتهم فنسوا معها أنهم فى سيناء وليسوا فى مصر.

يقول تعالى: وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي

(١) النكت والعيون جـ٢، ص٢٥٠
(٢) تفسير المنار جـ٩، ص ٧٦
(٣) فى ظلال القرآن، جـ٩، ١٣٥٦

هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ[١].

"يريد ما رزقوا في التيه من المن والسلوى، وبوحدته أنه لايختلف ولايتبدل. وكانوا فلاحة فنزعوا إلى عكرهم، واشتهوا ما ألفوه. والبقل ما أنبتته الأرض من الخضر والمراد به أطايبه التى تؤكل، والفوم الحنطة، ويقال للخبز، وقيل للثوم.. والقثاء هو القتة المعروفة والعدس والبصل معروفان.

قال موسى عليه السلام أتستبدلون الذى هو أدنى، أقرب منزلة وأدون قدرا، وأصل الدنو القرب فى المكان فاستعير للخسة كما استعير البعد للشرف والرفعة. بالذى هو خير يريد المن والسلوى فإنه خير فى اللذه والنفع وعدم الحاجة إلى السعى[٢].

وسؤال النوع الآخر من الطعام يحتمل أن يكون لأغراض الأول: أنهم لما تناولوا ذلك النوع الواحد أربعين سنة ملوه فاشتهوا غيره

والثاني: لعلهم فى أصل الخلقة ماتعودوا ذلك النوع، وإنما تعودوا سائر الأنواع

والثالث:لعلهم ملوا من البقاء فى التيه، فسألوا هذه الأطعمة التى لاتوجد إلا فى البلاد وغرضهم الوصول إلى البلاد لاإلى الأطعمة[٣].

وربما كان لعيش بنى اسرائيل الرضى فى مصر مدخل فى ذلك، إذ كانوا أولي حرث وزرع وثمار، يعيشون على ألوان من الطعام، كانت تجود لهم به الأرض الطيبة هناك. ولكن أين هم الآن من مصر وأين مصر منهم[٤]؟!

(١) البقرة ٦١.

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوى، دارالجيل ، بيروت، ص ١٢، وما بعدها

(٣) التفسير الكبير جـ٣، ص ٩٢

(٤) مع القرآن الكريم، ص ١٢١، وما بعدها

إن بنى اسرائيل رفضوا رزق السماء من المن (النقط الحمراء تتجمع على أوراق الشجر) والسلوى (طير السمان) مع أنه كان رزقا كثيرا ويأتيهم بلا عمل، وطلبوا من موسى طعام الأرض الذى يزرعونه بأيديهم ويرونه أمامهم كل يوم، وكأنهم خافوا أن يستيقظوا يوما، فلا يجدون المن والسلوى.

٣-مريـــــم والنخلة:

لم يذكر من أنواع النبات فى قصة مريم إلا النخلة، ولكنها ذكرت قائمة بدور أساسى، حيث صورت وكأنها إنسان يمد يد العون إلى من هو فى موقف ضيق. ومريم كانت فى مثل هذاالموقف، ولكن قدرة الله وعنايته شملتها بالرعاية والدفء مما جعل النخلة تثمر فى غير موعد الثمر (وقد أراد الله تعالى بهذا أن يسكن روعها ولتعلم أن من أوجد لها الرطب من النخلة اليابسة فى الشتاء وأوجد لها الماء الجارى فى تلك الهضبة التى كانت عليها من الجبل قادرعلى أن يرد عنها عيب العائبين[1].

يقول تعالى: فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا.فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَالَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا. فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا. وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا. فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا[2].

لقد طلبت مريم الجذع لتستتر به وتعتمد عليه عند الولادة، وكان جذع نخلة يابسة فى الصحراء ليس لها رأس ولا ثمرة ولاخضرة وكان الوقت شتاء.والتعريف لايخلو إما أن يكون من تعريف الأسماء الغالبة كتعريف النجم، كأن تلك الصحراء كان فيها جذغ نخلة متعالم عند الناس، فإذا قيل جذع النخلة فهم منه ذلك دون غيره من جذوع النخل، وإما أن يكون تعريف الجنس أى جذع هذه الشجرة خاصة أن الله تعالـــى إنما أرشـــدها إلى النخلة ليطعمها

(١) قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار،ص ٤٥٣

(٢) مريم ٢٢-٢٦

منها الرطب الذى هو خرسة النفساء الموافقة لها، ولأن النخلة أقل شيء صبرا على البرد وثمارها إنما هي من جمارها فلموافقتها لهامع جمع الآيات فيها اختارها لها وألجأها إليها.

فإن قلت: ما كان حزنها لفقد الطعام والشراب حتى تسلى بالسرى والرطب. قلت لم تقع التسلية بهما من حيث إنهما طعام وشراب ولكن من حيث إنهما معجزتان تريان الناس أنها من أهل العصمة حتى يتبين لهم أن ولادها من غير حمل ليس ببدع من شأنها. قالوا التمر للنفساء عادة فى ذلك الوقت وقالوا كان من العجوة، وقيل ما للنفساء خير من الرطب، وقيل إذا عسر ولادها لم يكن لها خير من الرطب.

أي جمعنا لك فى السرى والرطب فائدتين. احداهما: الأكل والشرب. والثانية سلوة الصدر لكونهما معجزتين[1].

والحكمة فى أمرها بهز جذع النخلة لتساقط عليها الرطب وأن رزقها كان رطبا، أن مريم لم يكن لها فى ذلك الحين من يهتم بأمرها ولاتقدر وهى نفساء أن تجهز لنفسها الطعام، وما يلزم لمثلها من هي فى حال النفاس، وأيضا فإن الرطب طعام وحلوى ولايحتاج إلى علاج ومعاناة صنع فكان ذلك رفقا بها[2].

فمريم كانت مباركة يفيض من حولها الخير ويفيض الرزق من كل مايسمى رزقا، حتى ليعجب كافلها وهو نبى من فيض الرزق.

"فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ[3].

---

(١) الكشاف جـ٢، ص ٥٠٦ وما بعدها

(٢) قصص الأنبياء. عبد الوهاب النجار، ص ٤٥٤

(٣) آل عمران، ٣٧

لقد ربى الله مريم ونماها فى خيره ورزقه وعنايته وتوفيقه تربية حسنة شاملة للروح والجسد كما تربى الشجرة فى الأرض الصالحة حتى تنمو وتثمر الثمرة الصالحة، لايفسد. طبيعتها شيء، ولعله عبر عن التربية بالإنبات لبيان أن التربية فطرية لاشائبة فيها[١].

٤- يوسف وتأويل الرؤيا:

قصة يوسف كما ذكر القرآن الكريم، أحسن القصص، لما ورد فى أولها حين قال الحق تعالى نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ[٢]. وهى ذات أسلوب فريد فى ألفاظها وتعبيراتها وأدائها ،وفى سردها وحوارها الممتع، تسرى مع النفس سريان الدم فى العروق وتجرى برقتها وسلاستها فى القلب جريان الروح فى الجسد.

وللنبات فى قصة يوسف دور متميز ظهر عندما فسر يوسف رؤيا الملك تفسيرا حكيما، كان من نتائجه الخير للملك وقومه.

يقول فخر الدين الرازى: اعلم أنه تعالى إذا أراد شيئا هيأله أسبابا، ولما دنا فرج يوسف عليه السلام رأى ملك مصر فى النوم سبع بقرات سمان خرجن من نهر يابس وسبع بقرات عجاف فابتلعت العجاف السمان، ورأى سبع سنبلات خضر قد انعقد حبها، وسبعا أخر يابسات فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبن عليها. فجمع الكهنة وذكرها لهم فقال القوم هذه الرؤيا مختلطة فلا نقدر على تأويلها[٣].

يقول تعالى: وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ[٤].

---

(١) تفسير المنار جـ٣، ص ٢٤٠

(٢) يوسف ٣

(٣) التفسير الكبير جـ١٨، ص١١٨

(٤) يوسف ٤٣

أصبح فرعون منزعجا لهذين المنامين فدعا بالسحرة وكل من له علم يسألهم فلم يجد عندأحد منهم جوابا، بل قالوا أضغاث أحلام،وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين. فى ذلك الوقت انتبه رئيس السقاة إلى الأمر، ومر على خاطره منامه الذى رآه فى السجن ويوسف الذى عبره له تعبيرا كأنه يشاهد أمرا واقعا. فعرض الأمر على الملك واقتص عليه حلمه وحلم رئيس الخبازين، وأن غلاما عبرانيا فى السجن قد عبر لهما رؤياهما، وطلب أن يرسله إلى السجن ليأتى بالتعبير الذى لامراء فيه من يوسف فأرسله الملك إليه[١].

ولكن ماذا كان تأويل يوسف للرؤيا؟

يقول تعالى: يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ. قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ. ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ. ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ[٢].

أي يأتيكم الخصب والمطر سبع سنين متواليات، ففسر البقر بالسنين لأنها تثير الأرض التى تستغل منها الثمرات والزروع وهن السنبلات الخضر ثم أرشدهم إلى مايعتدونه فى تلك السنين. فقال (فما حصدتم فذروه فى سنبله إلا قليلا مما تأكلون) أي مهما استغللتم فى هذه السبع السنين الخصب فادخروه فى سنبله ليكون أبقى وأبعد عن اسراع الفساد إليه إلا المقدار الذى تأكلونه وليكن قليلا قليلا لاتسرفوا فيه لتنتفعوا فى السنين الشداد وهن السبع السنين المحل التى تعقب هذه السبع المتواليات وهن البقرات العجاف اللاتى تأكل السمان لأن سنى الجدب يؤكل فيها ماجمعوه فى سنى الخصب وهن السنبلات اليابسات وأخبر أنهن لاينبتن شيئا وما بذروه فلا يرجعون منه إلى شيء ولهذا قال (يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلا مما

(١) عبد الوهاب النجار، المرجع نفسه ص ١٦٣

(٢) يوسف ٤٦-٤٩

تحصنون) ثم بشرهم بعد الجدب العام المتوالى بأنه يعقبهم بعد ذلك عام فيه يغاث الناس أى يأتيهم الغيث وهو المطر وتغل البلاد ويعصر الناس ما كانوا يعصرون على عاداتهم من زيت وسكر ونحوه[١].

فأول البقرات السمان والسنبلات الخضر بسنين مخاصيب والعجاب واليابسات بسنين مجدبة. ثم بشرهم بأن العام الثامن يجيء مباركا كثير الخير غزير النعم[٢].

وهـذا التأويـل كان سببا فى اطمئنان أولئك القوم، وتأهبهم لما سيحل بهم أثناء السـنين الشـداد. كذلك كان سـببا فى رفع يوسـف مكانا عليا. حيث جعل قائما على خزائن الأرض.

قال : ﴿ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾[٣].

٥- يونس وشجرة اليقطين:

أمر الله يونس عليه السلام. بالذهاب إلى قوم ليسوا من عشيرته ولا من بلده فخشى أن ينالوه بالأذى لأنه ليس بذي عصبية بينهم تقوم بنصره، وظن يونس أن الله تعالى لن يضيق عليه ولن يلزمه بالذهاب إليهم. فذهب ليبتعد عن ناحيتهم فأوى إلى الفلك المشحون، فكان ما كان من اضطراب الفلك حتى اضطر أهله إلى أن يساهموا على من يلقي فى البحر من الركاب فخرج سهمه إلى أن كان من المدحضين. وقيض الله حوتا لالتهامه فمكث فى بطنه ماشـاء الله أن مكث. فنبذه بالعراء وهو سقيم. وأن الله أنبت عليه شجرة من يقطين فلما فرح بها وارتفق بفيئها سلط الله عليها حيوانا قارضا فأكل أصلها ولفحتها ريح السموم فذوت وشق ذلك على نفسه فأفهمه الله أنه قد ناله الأسـف على يقطينة ليـس لها

(١) ابن كثير جـ٢، ص ٤٩٢، وما بعدها
(٢) الكشاف جـ٢، ص ٣٢٢
(٣) يوسف ٥٥

شأن وقد اهتم بها. أفلا يهتم بقرية فيها أكثر من مائة ألف يريد انقاذهم من ضلالهم ثم أرسله إليهم فآمنوا[١].

يقول تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ. فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ. فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ. فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ. لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ. فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ. وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ. وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ. فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾[٢].

واليقطين يفعيل من قطن بالمكان إذا أقام به، إقامة زائل لا إقامة راسخ. والمراد به على ما جاء عن ابن عباس وابن مسعود وأبى هريرة وغيرهم الدباء وهو القرع المعروف، وكان النبى صلى الله عليه وسلم يحبه وأنبتها الله تعالى مظلة عليه لأنها تجمع خصالا برد الظل، والملمس وعظم الورق، وأن الذباب لا يقع عليها. وكان عليه السلام. لرقة جلده يمكثه فى بطن الحوت يؤذيه الذباب، ويؤلمه حر الشمس، ويستطيب بارد الظل، فلطف الله تعالى به بذلك، وذكر أن ورق القرع أنفع شىء لمن ينسلخ جلده، واشتهر أن الشجر ما كان على ساق من عود فيشاكل تفسير الشجر هنا بالدباء. وأجاب أبو حيان بأن يحتمل أن الله تعالى أنبتها على ساق لتظله خرقا للعادة. وقال الكرمانى العامة تخصص الشجر بما له ساق، وعند العرب كل شىء له أرومة تبقى فهو شجر، وغيره نجم، ويشهد له قول أفصح الفصحاء، صلى الله عليه وسلم. شجرة الفوم[٣].

---

(١) عبد الوهاب النجار، المرجع نفسه، ص ٤٣١

(٢) الصافات ١٣٩-١٤٨

(٣) روح المعانى، جـ٢٣، ص ١٤٦ وانظر القرطبى، جـ١٥، ص ١٢٩، وابن كثير جـ٤، ص ٢٠، والكشاف جـ٣، ص ٣٥٣.

٦- ابراهيم والدعاء لمكة:

صور القرآن الكريم مكة المكرمة عندما نزلها إبراهيم عليه السلام وابنه وزوجته مكانا قفرا خاليا من الماء والنبات وقصة إسماعيل عند تفجر الماء من تحت قدميه مشهورة.

ولما كان إبراهيم أول من قطن هذا المكان وأسرته، كان أول دعاء له أن دعا لأهله بالرزق من الثمر، لأن الناس لن يحلوا بمكان إلا إذا توفر فيه عنصرا الحياة.الماء والنبات.

يقول تعالى: رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ[١].

هو وادى مكة ومعنى (غير ذى زرع) أي لايكون فيه شيء من زرع قط[٢].

وكما أنه واد غير ذى زرع فاجعل لهم ثمارا يأكلونها وقد استجاب الله ذلك كما قال أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا[٣]. وهذا من لطفه تعالى ورحمته وبركته أنه ليس فى البلد الحرام مكة شجرة مثمرة وهى تجبى إليها ثمرات ماحولها استجابة لدعاء الخليل عليه السلام[٤].

ويقول جل شأنه: وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ[٥].

---

(١) ابراهيم ٣٧

(٢) الكشاف جـ٢، ص ٣٨٠

(٣) القصص ٥٧

(٤) ابن كثير جـ٢، ص ٥٥٦ ومابعدها

(٥) البقرة ١٢٦

وظاهر الآية يدل على أن المراد دعاء إبراهيم للمؤمنين من سكان مكة بالأمن والتوسعة بما يجلب إلى مكة لأنها بلد لازرع ولاغرس فيه، فلولا الأمن لم يجلب إليها من النواحى، وتعذر العيش فيها، ثم إن الله تعالى أجاب دعاءه وجعله آمنا من الآفات.

فإذا كان البلد آمنا وحصل فيه الخصب تفرغ أهله لطاعة الله تعالى، وإذا كان البلد على ضد ذلك كانوا على ضد ذلك والله تعالي جعله مثابة للناس والناس يمكنهم الذهاب إليه، إذا كانت الطرق آمنة والأقوات هناك رخيصة. ولا يبعد أن يكون الأمن والخصب مما يدعو الإنسان إلى الذهاب إلى تلك البلدة، فحينئذ يشاهد المشاعر العظيمة، فيكون الأمن والخصب سبب اتصاله فى تلك الطاعة[١].

وقد خص إبراهيم بدعائه المؤمنين، ولكن الله واسع الرحمة وقد جعل رزق الدنيا عاما للمؤمنين والكافرين، ولكن تمتيع الكافر محدود بهذا العمر القصير. وذلك جواب الله تعالى لإبراهيم (قال ومن كفر فامتعه قليلا ثم اضطره إلى عذاب النار وبئس المصير)،أي وأرزق من كفر أيضا فامتعه بهذا الرزق قليلا وهو مدةوجوده فى الدنيا ثم أسوقه إلى عذاب النار[٢].

لقد استجاب الله تعالى لدعاء إبراهيم وحول مكة إلى بلد معمور، يفد إليها الناس من كل فج ، ومازالت قائمة على دعاء الخليل: فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ. الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ[٣].

٧- النبات فى سيرة محمد:

عندما نزل الوحى على الرسول-صلى الله عليه وسلم، فى مكة وبدأ يدعو إلى الإيمان بالله، كان المكيون- كما سجل القرآن-"شديدى العداوة لدين محمد، وشديدى الجدل الذى يبعد

(١) التفسير الكبير جـ٤،ص٥١

(٢) تفسير المنار جـ١، ص ٣٨١ ومابعدها.

(٣) قريش ٣-٤

كثيرا عن المنطق. وفى هذه الصورة التى يحكيها القرآن عنهم وعن الفكرة التى يتصورونها عن النبوة بل الإغراق فى الجدل ومحاولة التعجيز فى هذه الصورة ما ينبىء بما كان النبى يلقاه منهم حينما كانوا يريدون أن يخرجوه عن طبيعته، فلا يريدون أن يقبلوا منه دعوة رسول ولكن يريدون أن يروه فى صورة أخرى لاتستند إلى الطبيعة البشرية[١].

ولما تبين لهم إعجازالقرآن، وانضمت إليه المعجزات الأخر والبينات وألزمتهم الحجة وغلبوا أخذوا يتعللون باقتراح الآيات فعل المبهوت المتعثر فى أذيال الحيرة[٢].

ولأنهم أكثر احساسا بنعمتى الماء والنبات لصحراوية البيئة التى يعيشون فيها فقد تحدوا الرسول صلى الله عليه وسلم بشىء من هذا القبيل، حيث تحدوه أن يأتى لهم بجنة من عنب ونخيل ويفجر الأنهار خلالها تفجيرا. وصور القرآن هذا التحدى بقوله تعالى:

وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا. أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا[٣].

سألواذلك فى بلد ليس فيه ذلك. والمراد "عين لاينضب ماؤها وبستان تستر أشجاره ما تحتها من العرصة وخصوا النخيل والعنب بالذكر لأنهما كانا الغالب فى هاتيك النواحى مع جلالة قدرهما[٤].

والله لم يرد لرسوله صلى الله عليه وسلم- أن تكون له جنة لأنه أراد أن يكون قدوة لأمته ينهض بتكاليف رسالته الضخمة وهو فى الوقت ذاته يسعى لرزقه كما يسعى رجل من أمته.

---

(١) دراسات فى التفسير الموضوعى للقصص القرآنى. د. أحمد العمري، ص ٣٨٢، الخانجى، ط١.

(٢) الكشاف جـ٢، ص ٤٦٥.

(٣) الاسراء ٩٠-٩١.

(٤) روح المعانى ج١٥، ص ١٦٨

وشبيه بالآية السابقة قوله تعالى فى سورة الفرقان: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا. أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾[1].

إنهم يريدون من الرسول أشياء تخرجه عن نطاق بشريته يريدون منه أن يفجر الأرض وأن تكون له جنات من النخيل والعنب تجرى من حولها الأنهار، وذلك أقصى ما يصل إليه خيالهم من التعجيز لأنهم يفتقدون الماء. وكل المعجزات التى يتصورونها إنما تنحصر فى تفجير الينابيع وفى جنات النخيل والأعناب التى تجرى من حولها الأنهار، وهى صورة أبلغ ما تكون فى قصر النظر وفى ربط الدعوة الفكرية بالمصالح المادية التى تطمح إليها نفوسهم[2].

لقد استغل مشركو مكة النبات ليتحدوا به محمدا، وهو أمر لايستطيع الرسول صلى الله عليه وسلم تحقيقه لأن عملية تكوين جنة أمر بيد الله تعالى. صحيح أنه قادر على أن يفعل ذلك لمحمد ولكن محمدا لم يكن بحاجة إلى ذلك. لأن اثبات قدرة الله واضحة وماثلة أمامهم فى كل شىء حتى فى أنفسهم فلينظروا فى أنفسهم ويقارنوها بالنبات الذى كان طرفا فى الأمثال التى صرفت لهم فى القرآن.

إنهم علقوا إيمانهم بالرسول صلى الله عليه وسلم. بأن يفجر لهم من الأرض ينبوعا أو بأن تكون له جنتمن نخيل وعنب يفجر الأنهار خلالها تفجيرا.

وصورة أخرى للنبات في سيرة الرسول محمد وفى رحلته فى سبيل الدعوة إلى الإيمان بالله، وهى ملحوظة عندما بايعه ألف وأربعمائة على الإيمان بالله، تحت الشجرة فى أرض الحديبية.

---

(١) الآيات ٧-٨

(٢) دراسات فى التفسر الموضوعى للقصص القرآنى، ص ٣٨٣.

يقول تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[١].

فالله تعالى في هذه الآية" يخبر عن رضاه عن المؤمنين الذين بايعوا رسوله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة، وأنهم كانوا ألفا وأربعمائة، وأن الشجرة كانت سمرة بأرض الحديبية[٢].

وظلت هذه الشجرة قائمة حتى خلافة عمر بن الخطاب، وكان الناس يتخذونها مصلى لهم، فبلغه ذلك، فأمر بقطعها خشية الفتنة بها لقرب الجاهلية وعبادة غير الله تعالى منهم[٣].

فإذا تخيلنا حال ألف وأربعمائة وهم يبايعون الرسول تحت شجرة في صحراء الجزيرة العربية تخيلناهم وهم يعانون لفحة الرمضاء. وأن الله تعالى وقاهم حر الشمس بوجود هذه الشجرة في هذا المكان. فكأن الله تعالى شمل هذه الشجرة برعايته حتى يأتي هذا اليوم.

وهي صورة تظهر أهمية الظل بالنسبة للجزيرة العربية لأن أهلها في حاجة إلي مثل هذه الأشجار يتفيأون ظلالها في طريقهم وأثناء قيامهم برحلاتهم التجارية.

٨- قصة أصحاب الجنة:

ذكر القرآن الكريم قصة في سورة القلم. يبدو أنها معروفة عند أهل مكة شائعة بينهم لأنه يذكرهم بعاقبة البطر بالنعمة ومنع الخير والاعتداء على حقوق الآخرين، ويشعرهم أن ما بين أيديهم إنما هو ابتلاء لهم كما ابتلى أصحاب هذه القصة.

---

(١) الفتح ١٨

(٢) ابن كثير جـ٤، ص ١٩٠

(٣) روح المعاني، جـ٢٣، ص ١٠٧

ومن خلال نصوص هذه القصة وحركاتها نلمح مجموعة من الناس ساذجة بدائية أشبه فى تفكيرها بأهل الريف البسطاء ولعل هذا المستوى من النماذج البشرية كان أقرب إلى المخاطبين بالقصة الذين كانوا يعاندون ويجحدون[1].

يقول تعالى: إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ. وَلَا يَسْتَثْنُونَ. فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ. فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ. فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ. أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ. فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ. أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ. وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ. فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ. بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ. قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ. قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ. فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ. قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ. عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ[2].

أى اختبرنا كفار قريش كما اختبرنا أصحاب البستان المشتمل على أنواع الثمار والفواكه عندما حلفوا فيما بينهم ليجذن ثمرها ليلا لئلا يعلم بهم فقير ولاسائل ليتوفر ثمرها عليهم ولايتصدقوا منه بشىء (ولا يستثنون) أي فيما حلفوا به، فلهذا حنثهم الله فى أيمانهم فأصابتها آفة سماوية فأصبحت مثل الزرع إذا حصد أى هشيما يبسا. وعندما كان وقت الصبح نادى بعضهم بعضا ليذهبوا إلى الجذاذ أي القطع وكان حرثهم عنبا فانطلقوا وهم يتناجون فيما بينهم بحيث لايسمعون أحدا كلامهم. ثم فسر الله تعالى ما كانوا يتخافتون به فقال تعالى(أن لايدخلنها اليوم عليكم مسكين)، أي يقول بعضهم لبعض لاتمكنوا اليوم فقيرا يدخلها عليكم. وغدوا على قوة وشدة قادرين عليها فيما يزعمون ويرومون فلما رأوها قالوا: إنا لضالون. أي فلما وصلوا إليها وأشرفوا عليها وهى الحالة قال عز وجل قد استحالت عن تلك النضارة والزهرة وكثرة الثمار إلى أن صارت سوداء مدلهمة لاينتفع بشى منها فاعتقدوا

(١) فى ظلال القرآن جـ٢٩، ص ٣٦٦٤.

(٢) القلم ١٧-٣٢

أنهم قد أخطأوا الطريق. ولهذا قالوا (إنا لضالون) أي قد سلكنا إليها غير الطريق فتهنا عنها، ثم رجعوا عما كانوا فيه وتيقنوا أنها هى فقالوا بل هى ولكن نحن لاحظ لنا ولانصيب[١].

وأصحاب الجنة قوم من أهل الصلاة كانت لأبيهم هذه الجنة، فكان يأخذ منها قوت سنته ويتصدق بالباقى، وكان يترك للمساكين ما أخطأه المنجل، وما أخطأه القطاف من العنب، وما بقى على البساط الذى يبسط تحت النخلة إذا صرمت. فلما مات قال بنوه: إن فعلنا ماكان يفعل أبونا ضاق علينا الأمر ونحن أولو عيال[٢]. فهم خرجوا لينتفعوا بالجنة ويمنعوا الفقراء عنها ،فقلب الله عليهم القضية، هكذا أهل مكة، لما خرجوا إلى بدر حلفوا على أن يقتلوا محمدا وأصحابه، وإذا رجعوا إلى مكة طافوا بالكعبة وشربوا الخمور، فأخلف الله ظنهم وأسروا كأهل الجنة[٣].

فالقرآن يسوق إلى قريش هذه التجربة من واقع بيئتهم ومما هو متداول بينهم من القصص، فيربط بين سنته فى الغابرين وسنته فى الحاضرين ويلمس قلوبهم بأقرب الأساليب إلى واقع حياتهم، وفى الوقت ذاته يُشعر المؤمنين بأن مايرونه على المشركين من كبراء قريش من آثار النعمة والثروة إنما هو ابتلاء من الله له عواقبه وله نتائجه[٤].

٩- سبـــأ وجناتهم:

كانت سبأ ملوك اليمن وأهلها وكانت التبابعة منهم،و بلقيـــس صـــاحبـــة ســـليمان- عليه السلام من حميتهم، وكانوا فى نعمة وغبطة فى بلادهم وعيشتهم واتساع أرزاقهم وزروعهم وثمارهم وبعث الله تعالى إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقـــه و يشـــكروه

---

(١) ابن كثيرجـ٤، ص ٤٠٦، ومابعدها بتصرف.

(٢) الكشاف، جـ٤، ص ١٤٤. وانظر روح المعانى، جـ٢٩، ص ٢٩ والقرطبى، جـ١٨، ص ٢٣٩.

(٣) مفاتيح الغيب جـ٣٠، ص ٨٠

(٤) فى ظلال القرآن جـ٢٩، ص ٣٦٦٦

بتوحيده وعبادته فكانوا كذلك ما شاء الله تعالى ثم أعرضوا عما أمروا به فعوقبوا بإرسال السيل والتفرق فى البلاد[١].

يقول تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ. فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ. ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾[٢].

(آية) أي علامة دالة على قدرة الله تعالى على أن لهم خالقا خلقهم وأن كل الخلائق لو اجتمعوا على أن يخرجوا من الخشبة ثمرة لم يكنهم ذلك، ولم يهتدوا إلى اختلاف أجناس الثمار وألوانها وطعومها وروائحها وأزهارها وفى ذلك ما يدل على أنها من عالم قادر. وقيل إن الآية هى الجنتان كانت المرأة تمشى فيهما وعلى رأسها مكتل فيمتلىء من أنواع الفواكه من غير أن تمسها بيدها. قال القشيرى: ولم يرد جنتين اثنتين بل أراد من الجنتين يمنة ويسرة، أي كانت بلادهم ذات بساتين وأشجار وثمار،تستتر الناس بظلالها. (كلوا من رزق ربكم) أي قيل لهم كلوا ولم يكن ثم أمر ولكنهم تمكنوا من تلك النعم الممثلة فى ثمار الجنتين (واشكروا له) يعنى على مارزقكم (بلدة طيبة) أى هذه بلدة طيبة أى كثيرة الثمار. (ورب غفور) أي والمنعم بها عليكم رب غفور يستر ذنوبكم. فجمع لهم بين مغفرة ذنوبهم وطيب بلدهم ولم يجمع ذلك لجميع خلقه.

قوله تعالى (فأعرضوا) يعنى عن أمره واتباع رسله بعد أن كانوا مسلمين. (فأرسلنا عليهم سيل العرم) العرم السد.

---

(١) ابن كثير جـ٣، ص ٥٤٧.

(٢) سبأ ١٦-١٨

وقوله تعالى (وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط)، قال أهل التفسير: الخمط الأراك، وقال أبوعبيدة هو كل شجر ذى شوك فيه مرارة. (وأثل) قال الفراء هو شبيه بالطرفاء إلا أنه أعظم منه طولا، ومنه اتخذ منبر الرسول صلى الله عليه وسلم. وللأثل أصول غليظة يتخذ منه الأبواب، وورقه كورق الطرفاء، (وشىء من سدر قليل) قال الفراء: هو السمر. قال قتادة بينما شجر القوم من خير شجر إذ صيره الله تعالى من شر الشجر بأعمالهم، فأهلك أشجارهم المثمرة وأنبت بدلها الأراك والطرفاء والسدر القليل[1].

وهذا موعظة لقريش وتحذير لهم لكفرهم وجحودهم لنعمة الله، الذى رزقهم وأطعمهم من جوع وأمنهم من خوف.

هكذا كانت القصة القرآنية آية من آيات الله، وعنصرا من عناصر الإعجاز القرآنى بمضمونها، وبعناصرها وخصائصها، وكانت اثباتا للوحى،وتدعيما للرسالة النبوية، كما حوت العبرة والموعظة، وكشفت عما حاق بالأمم الماضية من فنون العذاب والهلاك.

(١) الجامع لأحكام القرآن جـ١٤، ص ٢٨٢ وما بعدها

الفصل السابع
النبـــات والتسبيح

آيات للكمبيوتر

الفصل السابع

النبات والتسبيح

خلق الله تعالى كل شيء وسواه وصوره فى أحسن صورة لعبادته وذكره والتسبيح بحمده، وأكرم هذه المخلوقات الإنسان الذى كرمه الله تعالى فى القرآن بقوله ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾[١]. وكذلك كرمه بسجود الملائكة له، وهو الكائن الحى الوحيد الذى خصه الله بذلك، وكذلك هو المخلوق الذى اختص بعبادة الله عبادة كلية من صلاة وصوم وزكاة وحج.. لتميزه عن سائر المخلوقات.. ولكن ليس معنى هذا أن سائر الكائنات لاتتميز بشيء، ولكن لها مايميزها، ويجعلها شبيهة بالإنسان مثل السجود لله والتسبيح بحمده.

ولقد دعا القرآن فى مواضع شتى إلى التفكير فيما يحيط بالإنسان من مظاهر الكون لأن هذا التفكير يدفع إلى إجلال خالقه، والإيمان العميق بقدرته وحكمته، وأثنى على أولئك الذين تدفعهم مظاهر الكون إلى التفكير فيها لادراك ما أودع فيها من أسرار، وما تدل عليه من أن مودع هذه الأسرار عليم قدير. ونعى على هؤلاء الذين يمرون بهذه المظاهر فلا تسترعى انتباههم ولاتدفعهم إلى التدبر والتفكير[٢].

ولأن القرآن كتاب دين اتجه وهو يتحدث عن مظاهر الطبيعة إلى تلك الناحية التى تفضى إلى الإيمان بالله وقدرته التى لايعجزها شيء ووجه النظر إلى أن كثيرا من تلك المظاهر يقود إلى الإيمان بالبعث والحياة الثانية[٣].

ومن أجل ذلك يوجه النظر إلى السموات والأرض وما فيها طالبا التدبر والتأمل، لأن فى التأمل فى مظاهر الكون دعوة إلى عبادته وهى دعوة مقرونة بأسبابها ودواعيها، والقرآن من أجل ذلك يقرن هذه المظاهر بالحديث عما فى خلقها من نعم يسعد بها الإنسان[٤].

---

(١) من الآية ٦٩ الإسراء

(٢) من بلاغة القرآن ص ٣٥٣

(٣) المرجع السابق، ص ٣٥٤

(٤) نفس المرجع ٣٥٦

ومن ذلك يبدو أن مظاهـــر الطبيعة التى نراهـــا بأعيننا قد وجه القرآن النظر إليها ليصل بها إلى تثبيـــت الإيمان فى النفـــس إيمانا منشـــؤة الإقتناع الذى يدفع إلى العبـــادة، وإن ما يدركه العلماء كل يوم مما أودع فى الطبيعة من أسرار ليزيد النفوس يقينا بقدرة الخالق وحكمته[١].

والنبات من بين الكائنات التى يتضـــح فيها الانقياد والخضوع لكائن أعلى يهيمن عليه ويســـيطر بحكمته العليَّة إله يعنـــو له كل الوجود وتعنو له كل الوجوه قد أحاط علمه بكل شىء.

وبهذا يتخذ القرآن ما عليه الكون من نظام حجة على وحدانية الله ودليلا على تفرده بالصنع والانقياد فيقول تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾[٢].

ومعنى التسبيح: تبعيد الله تعالى من السوء، وكذا التقديس من سبح فى الماء وقدس فى الأرض إذا ذهب فيها وأبعد[٣].

فالسموات السبع والأرض ومن فيهن من المخلوقات تقدسه وتنزهه عما يقول هؤلاء المشركون ، وتشهد له بالوحدانية فى ربوبيته وإلهيته. وقوله تعالى (وإن من شىء إلا يسبح بحمده) أي وما من شىء من المخلوقات إلا يسبح بحمد الله ولكن لاتفقهون تسبيحهم أيها الناس لأنها بخلاف لغاتكم وهذا عام فى الحيوانات والجمادات والنباتات[٤].

---

(١) نفس المرجع ص ٣٥٨

(٢) الإسراء ٤٤

(٣) مفاتيح الغيب، جـ٢٩، ص ١٧٩

(٤) ابن كثير جـ٣، ص ٤٢

ولكن كيف يكون تسبيح النبات؟

يقول فخر الدين الرازى: اعلم أن الحى المكلف يسبح الله بوجهين: الأول بالقول باللسان سبحان الله. والثانى بدلالة أحواله على توحيد الله تعالى وتقديسه.

فأما الذى لايكون مكلفا مثل البهائم ومن لايكون حيا مثل الجمادات فهى إنما تسبح لله تعالى بالطريق الثانى؛لأن التسبيح بالطريق الأول لايحصل إلا مع الفهم والعلم والإدراك والنطق. وكل ذلك فى الجمادات محال فلم يبق حصول التسبيح فى حقه إلا بالطريق الثانى. ومن الناس من قال: إن الجمادات وأنواع النبات والحيوان كلها تسبح لله تعالي،واحتجوا على صحة قولهم بأن قالوا: دل هذا النص على كونها مسبحة لله تعالى ولايمكن تفسير هذا التسبيح بكونها دلائل على كمال قدرة الله تعالى وحكمته لأنه تعالى قال (ولكن لاتفقهون تسبيحهم)، فهذايقتضى أن تسبيح هذه الأشياء غير معلوم لنا ودلالتها على وجود قدرة الله وحكمته معلوم، والمعلوم مغاير لما هو غير معلوم فدل على أنها تسبح لله تعالى وأن تسبيحها غير معلوم لنا، فوجب أن يكون التسبيح المذكور فى هذه الآية مغايرا لكونها دالة على وجود قدرة الله تعالى وحكته.

والجواب عنه من وجوه[1].

الأول: أنك إذا أخذت تفاحة واحدة فتلك التفاحة مركبة من عدد كثير من الأجزاء التى لا تتجزأ ،وكل واحد من تلك الأجزاء دليل تام مستقل على وجود الإله. ولكل واحد من تلك الأجزاء التى لاتتجزأ صفات مخصوصة من الطبع والطعم واللون والرائحة. واختصاص ذلك الجوهر الفرد بتلك الصفة المعينة من الجائزات فلا يحصل ذلك الاختصاص إلا بتخصيص مخصص قادر حكيم.

إذا عرفت هذا فقد ظهر أن كل واحد من أجزاء تلك التفاحة دليل تام على وجود الإله وكل صفة من الصفات القائمة بذلك الجزء دليل تام على وجود الإله تعالى، ثم عدد تلك

(١) الكلام لفخر الدين الرازى.

الأجزاء غير معلوم وأحوال تلك الصفات غير معلومة، فلهذا المعنى قال تعالي (ولكن لاتفقهون تسبيحهم).

الثانى: هو أن الكفار وإن كانوا يقرون بألسنتهم باثبات إله للعالم إلا أنهم ماكانوا يتفكرون فى أنواع الدلائل ولهذا المعنى قال تعالى ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾[1]. فكان المراد من قوله (ولكن لاتفقهون تسبيحهم) هذا المعنى.

الثالث: أن القوم وإن كانوامقرين بألسنتهم باثبات إله العالم إلا أنهم ما كانوا عالمين بكمال قدرته ولذلك فإنهم استبعدوا كونه تعالي قادرا على الحشر والنشر فكان المراد ذلك. وأيضا فإنه تعالى قال لمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾[2]. فهم ماكانوا عالمين بهذا الدليل فلما ذكر هذا الدليل قال: (تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن) فتسبيح السموات والأرض ومن فيهن يشهد بصحة هذا الدليل وقوته وأنتم لاتفقهون هذا الدليل ولا تعرفونه. بل نقول[3]: إن القوم كانوا غافلين عن أكثر دلائل التوحيد والعدل، والمعاد فكان المراد من قوله (ولكن لاتفقهون تسبيحهم) ذلك ومما يدل على أن الأمر كما ذكرناه قوله (إنه كان حليما غفورا)[4].

إنه لتعبير قرآنى تنبض به كل ذرة فى هذا الكون الكبير، وتنتفض روحا حية تسبح الله، فإذا الكون كله حركة وحياة، وإذا الوجود كله تسبيحة واحدة.

---

(١) يوسف ١٠٥

(٢) الاسراد ٤٢

(٣) الكلام لفخر الدين الرازى

(٤) مفاتيح الغيب جـ٢٠، ص ١٧٤ وما بعدها

وإنه لمشهد كونى فريد حين يتصور القلب كل زهرة وكل ثمرة وكل نبتة وكل شجرة. كلها تسبح لله وتتوجه إليه فى علاة[١].

ولقد جاء (سبح) فى بعض السور على لفظ الماضى وفى بعضها على لفظ المضارع، وذلك اشارة إلى أن كون هذه الأشياء مسبحة غير مختص بوقت دون وقت، بل هى كانت مسبحة أبدا في الماضى وتكون مسبحة أبدا فى المستقبل[٢].

يقول تعالى: سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ[٣].

ويقول جل شأنه: يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَافِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ[٤].

والتسبيح المذكور فى الآية "إن حمل على التسبيح بالقول كان المراد بقوله (ما فى السموات ومافى الأرض) من فى السموات ومن فى الأرض.وأما إذا حملنا هذا التسبيح على التسبيح المعنوى، فأجزاء السموات وذرات الأرض والجبال والرمال والبحار والشجر. وهذا التسبيح هو المراد بالسجود[٥].فى قوله تعالى

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلٰلُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ[٦].

---

(١) فى ظلال القرآن جـ١٥، ص ٢٢٣٠ وما بعدها

(٢) مفاتيح الغيب جـ٢٩، ص ١٧٩وما بعدها.

(٣) الحديد ١

(٤) التقابن١

(٥) مفاتيح الغيب جـ٢٩، ص ١٨٠، وما بعدها

(٦) الرعد ١٥.وكلام الرازى على اعتبار "ولله يسجد ما فى السموات والأرض)ولعل الأصوب(من فى السموات والأرض)

وفى هذه الآية يخبر تعالى عن عظمته وسلطانه الذى قهر كل شىء، ودان له كل شىء ولهذا يسجد له كل شىء طوعا وكرها وظلالهم بالغدو آى البكرات والآصال وهو آخر النهار[١].

والمراد من سجود الظلال ميلانها من جانب إلى جانب وطولها بسبب انحطاط الشمس وقصرها بسب ارتفاع الشمس، فهى منقادة مستسلمة فى طولها وقصرها وميلها من جانب إلى جانب وإنما خص الغدو والآصال بالذكر لأن الظلال إنما تعظم وتكثر فى هذين الوقتين[٢].

والله تعالي يوجه الخطاب لمن يعبد غيره، ليقول لهم إن الأشياء وظلالها تسجد، بل إن الكون بمن فيه وما فيه كله ساجد لله تعالى، وأنتم أيها الجاحدون تدعون آلهة من دونه.

يقول تعالى: أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ[٣].

أي أو لم يروا إلى ماخلق الله من الأجرام التى لها ظلال متفيئة عن أيمانها وشمائلها أي على جانبى كل واحد منها وشقيه استعارة من يمين الإنسان وشماله لجانبى الشىء. أي ترجع الظلال من جانب إلى جانب منقادة لله غير ممتنعة عليه فيما سخرها له من التفيؤ، والأجرام فى أنفسها داخرة أيضا صاغرة منقادة لأفعال الله فيها لاتمتنع[٤].

ولعل توحيد اليمين وجمع الشمائل باعتبار اللفظ والمعنى كتوحيد الضمير فى ظلاله وجمعه فى قوله (سجدا لله وهم داخرون)والمراد من السجود الاستسلام سواء كان بالطبع

---

(١) ابن كثير جـ٢، ص ٥٢١.

(٢) مفاتيح الغيب جـ١٩، ص ٢٥

(٣) النحل ٤٨

(٤) الكشاف جـ٢، ص ٤١٢

والاختيار يقال سجدت النخلة إذا مالت لكثرة الحمل.. والمعنى ترجع الظلال بارتفاع الشمس وانحدارها وباختلاف مشارقها ومغاربها بتقدير الله من جانب إلى جانب منقادة لما قدرها من التفيء واقعة على الأرض ملتصقة بها على هيئة الساجد،والأجرام فى أنفسها أيضا داخرة أي صاغرة منقادة لأفعال الله تعالى فيها. وقيل اليمين والشمائل يمين الفلك وهوجانبه الشرقى لأن الكواكب تظهر منه آخذة فى الارتفاع والسطوع، وشماله وهو جانبه الغربى المقابل له فإن الظلال فى أول النهارتتبدى من المشرق واقعة على الربع الغربى من الأرض وعند الزوال تتبدي من المغرب واقعة على الربع الشرقى من الأرض[١].

والسياق القرآنى يعبر عن خضوع الأشياء لنواميس الله بالسجود، وهو أقصى مظاهر الخضوع ويوجه إلى حركة الظلال المتضيئة أي الراجعة بعد امتداد، وهى حركة لطيفة ذات دبيب فى المشاعر[٢].

يقول تعالى: الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ[٣].

ذكر الحق نعمتين ظاهرتين هما أظهر أنواع النعم السماوية وهما الشمس والقمر.. ثم بين كمال نفعهما فى حركتهما بحساب لايتغير[٤]. ثم بين فى مقابلتهما نعمتين ظاهرتين من الأرض وهما النبات الذى لاساق له والذى له ساق. فإن الرزق أصله منه، ولولا النبات لما كان لآدمى رزق إلا ماشاء الله[٥]. وأصل النعم على الرزق الدار، وإنما قلنا النبات هو أصل الرزق لأن الرزق إما نباتى وإما حيوانى.. ولولا النبات لما عاش الحيوان[٦]. والنبات وهو الأصـــل

(١) تفسير البيضاوى، ص ٣٥٧، ومابعدها
(٢) فى ظلال القرآن جـ١٤، ص ٢١٧٣
(٣) الرحمن ٥، ٦
(٤) راجع ص٣٠-٣٩ من هذا البحث.
(٥) راجع ص٧٣ من هذا البحث
(٦) راجع ص ٧٧ من هذا البحث.

وهو قسمان قائم على ساق كالحنطة والشعير والأشجارالكبار وأصول الثمار،وغير قائم كالبقول المنبسطة على الأرض والحشيش والعشب الذى هو غذاء الحيوان.

والنجم فيه وجهان: أحدهما النبات الذى لاساق له، والثانى نجم السماء. والأول أظهر لأنه ذكره مع الشجر فى مقابلة الشمس والقمر. ذكر أرضيين فى مقابلة سماويين، ولأن قوله تعالى (يسجدان)، يدل على أن المراد ليس نجم السماء لأن من فسر به قال يسجد بالغروب، وعلى هذا فالشمس والقمر أيضا كذلك يغربان، فلا يبقي للاختصاص فائدة، وأما إذا قلنا هما أرضيان فنقول (يسجدان) بمعنى ظلالهما تسجد فيختص السجود بهما دون الشمس والقمر. وفى سجودهما وجوه أحدها ما ذكرنا من سجود الظلال. ثانيا: خضوعهما لله تعالى وخروجهما من الأرض ودوامهما وثباتهما عليها بإذن الله تعالى فسخر الشمس والقمر بحركة مستديرة والنجم بحركة مستقيمة إلى فوق فشبه النبات فى مكانها بالسجود لأن الساجد يثبت. ثالثها: حقيقة السجود توجد منها وإن لم تكن مرئية كما يسبح كل منهما وإن لم يفقه كما قال تعالى (ولكن لاتفقهون تسبيحهم)، رابعها: السجود وضع الجبهة على الأرض والنجم والشجر فى الحقيقة رؤوسهما على الأرض وأرجلهما فى الهواء لأن الرأس من الحيوان مابه شر به واغتذاؤه، وللنجم والشجر اغتذاؤهما وشربهما، بأجذالهما ولأن الرأس لاتبقى بدونه الحياة والشجر والنجم لايبقى شيء منهما غضا ثابتا عند وقوع الخلل فى أصولهما. ويبقى عند قطع فروعهما وأعاليهما، وإنما يقال للفروع رءوس الأشجار لأن الرأس فى الإنسان هو مايلى جهة فوق، فقيل لأعالى الشجر رءوس.إذا علمت هذا فالنجم والشجر رءوسهما على الأرض دائما، فهو سجودهما بالشبه لا بطريق الحقيقة[1].

فهذا الوجود مرتبط ارتباط العبودية والعبادة بمصدره الأول وخالقه المبدع. والنجم والشجر نموذجان منه يدلان على اتجاهه كله[2].

---

(١) مفاتيح الغيب جـ٢٩، ص ٧٩

(٢) فى ظلال القرا جـ٢٧، ص ٣٤٤٨

يقول تعالى : أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ[١].

فكل مافى السماء من النجوم وغيرها وكل مافى الأرض من شجر وغير شجر يسجد فى خضوع تام له وفى انقياد كامل ليصرفه كيف يشاء وليبتغى به مايريد من غاية وهى غاية تتصل بالإنسان. فكل ما في الكون سخره له وذلله كى ينتفع به فى حياته وفى ذلك يقول جل شأنه فى سورة الجاثية[٢]. وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ[٣].

(١) الحج ١٨

(٢) تفسير سورة الرحمن وسور قصار ص ٥٣

(٣) آية ١٣

خاتمة البحث

خاتمة البحث

فى التمهيد للبحث قلت إن الهدف من هذه الدراسة هو التمرس بتحليل النص الأدبى. شعرا كان أو نثرا. وبدأت بالقرآن الكريم لأنه الكتاب الذى أنزله الله على محمد صلى الله عليه وسلم فى وقت كان العرب نابغين فى فنون القول المختلفة. ولكن عندما جاء هذا الكتاب هز وجدانهم ومشاعرهم وتفوق على فصاحتهم ببلاغته وحسن بيانه. ومن هنا فهو جدير بأن يبدأ به الباحث فى مجال الدراسات الأدبية.

والقرآن الكريم موضوعاته متنوعة، وتمتد لتشمل جوانب الحياة. ومن هذه الموضوعات (النبات) الذى ذكر فى آيات متعددة من القرآن، بل إن دلالاته وايحاءاته تنوعت من آية لأخرى مما جعلنى أدرسه دراسة شاملة لكل جوانبه، لنتعرف علي الدور الذى لعبه النبات فى الحياة من خلال القرآن الكريم.

لقد اتخذ النبات دليلا على فناء الحياة الدنيا، وعلى البعث والنشور، واتخذ مشبها به فى الأمثال القرآنية واتخذ غذاء للإنسان والحيوان و اتخذ عونا للأنبياء فى القصة القرآنية،وعذابا وانتقاما لمن عصى الله من أقوام الأنبياء، واتخذ غذاء لمن يدخلون الجنة، وعذابا لمن يدخلون النار.

ومن هنا حددت منهج البحث فى سبعة فصول،وفى كل فصل اختلف التصوير القرآنى للنبات عنه فى الفصل الآخر.

فى البداية-وهذا ضرورى- صنعت معجما مفهرسا للآيات التى استخدمتها فى البحث وقسمتها تقسيما موضوعيا، حيث جمعت الآيات التى تتحد فى الموضوع جنبا إلى جنب،وهذا المعجم يعد مرآة لمن يقرأ البحث وهى فكرة من إيحاء استاذى

الدكتورعاطف جودة، وساعدنى في طريقة عرضها كتاب أستاذنا الدكتور عز الدين اسماعيل"نصوص قرآنية فى النفس الانسانية[١].

وبعد هذا المعجم جاء الفصل الأول، تحدثت فيه عن الظواهر الكونية فى السماء والأرض وعلاقتها بالنبات. فالسماء تمنح الأرض الحياة بما تدره عليها من أمطار وأنوار تيسر للمخلوق عليها سبل الحياة. وبهذا يعتبر كل كائن حى على ظهر الأرض وليد هذين الأبوين المتصلين اتصالا شرعه الله لهما منذ خلقهما إلى أن يأذن بزوالهما.

فى السماء الشمس والقمر، أما الشمس فمعها الفصول التى تنتظم بها حياة الإنسان والحيوان والزروع، ومعها النهار الذى يضرب فيه الإنسان الأرض باحثا عن وجوه كسبه ومعاشه.

وأما القمر فمعه الأهلة ومعه منازله التى يسير فيها على مدار كل شهر. والغاية من زيادة القمر ونقصانه واكتماله واحتجابه وتنقله فى منازله معرفة المواقيت فى العبادات وفى المعاملات وغيرها من مصالح الإنسان.

وكانت نتيجة هذا الفصل أن أوضحت أن النبات من بين الكائنات الحية التى نتجت عن علاقة السماء بالأرض بل إنه يعتبر أهمها لأن عليه غذاء الإنسان.

وفى الفصل الثانى تحدثت عن علاقة الماء بالنبات ، وأوضحت أن كل كائن حى مصدره الماء، انطلاقا من قوله تعالى:﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾. وقادنى هذا إلى الحديث عن دور النبات فى بلد صحراوى وهومكة لأنها بيئة فقيرة إلى الماء، وتجد معاناة فى سبيل الحصول عليه. وكانت نتيجة ذلك عدم وجود أنماط زراعية لديهم. والشيء

(١) نشر مكتبة غريب

الذى خدمتـهم فيه الأمطـــار-وكانت قليلة-هو رعى الأنعام، مما جعلهم فى سعى وترحال وراء الأعشاب.

وهناك آيات قرآنية تحدثت عن الألوان مرتبطة بالنبات تكملة للتنسيق الكلى لهذا الكون. وتوصلت من خلال حديثى عن الألوان فى القرآن إلى أن العرب كانوا يعيشون فى بيئة يشعرون من خلالها بقيمة الجمال فى عالم النبات، ولكن هذا لم يهدهم إلى تقديم أنواع من الفنون تعتمد على براعة التقليد لعالم النبات. لكنهم برعوا فى تقديم أوصاف رقيقة له من خلال أشعارهم التى تدل على حسهم المرهف.

وفى هذا الفصل أيضا تحدثت عن قضية البعث التى استدل القرآن عليها بالنبات فى آيات كثيرة حيث شبة احياء الأجسام بعدما صارت عظاما بالية بإنزال الماء على الأرض ثم اخراج النبات منها.

أما الفصل الثالث: فكان عن علاقة النبات بحياة الانسان وموته، لأن فى وجود النبات حياة الإنسان، وفى عدم وجوده هلاكا له.

وقسمت هذا الفصل قسمين أساسين:

١- النبات وعلاقته بالحياة والموت فى القرآن المكى.

٢- النبات وعلاقته بالحياة والموت فى القرآن المدنى.

أولا: فـى القســـم المكـــى:

أثبت أهمية النبات بالنسبة لأهل مكة الذين لم يكونوا زراعا يرتبطون بالأرض، إنما كانوا أقواما غلبت عليهم البداوة وعاش أكثرهم عيشة الإرتحال. لذلك كانت ظاهرة الوأد منتشرة بينهم وكانت بسبب خوفهم من الفقر ورغبتهم فى التخفف منه. فبلادهم-كما قلت-كانت شحيحة بالزاد وكثيرا ما انتابها القحط والجدب وقاسى سكانها مرارة الجوع بسبب الجفاف.

ومن أجل هذا كانت رحلتا الشتاء والصيف التجاريتان تعويضا لهم عن فقر بيئتهم إلى النبات، والقرآن نص على هذا.

وفى هذا القسم تحدثت عن عدة أشياء قائمة على النبات وتحدث عنها القرآن مثل قضية الرزق التى تحدث عنها القرآن فى أماكن متفرقة، ذاكرا أن الرزق بيد الله لأنه هو الذى قدر أقوات البشر، والرزق قائم على النبات. وبالتالى العلاقة مباشرة بينهما.

وكذلك تحدثت عن طعام الأنعام (الأب) لأن أهل مكة كانوا مرتبطين بحرفة الرعى.
وبما أن الظل من مراتع البدوى ومناعمه، فقد حظى بنصيب من هذا البحث بوصفه أحد الدلالات النباتية التى خاطبت عقول أولئك القوم الذين عاشوا فى صحراء جرداء تندر فيها الأشجار التى تقيهم حر الشمس، أو يجدونها فى طريقهم أثناء رحلاتهم التجارية فينشدون الراحة فى أفيائها.

ومن الدلالات النباتية (النار)، حيث كان للعرب شجرتان احداهما المرخ والأخرى العفار، إذا أخذ منهما غصنان فحك أحدهما بالآخر انقدح من بينهما شرر النار.

وكذلك من الدلالات النباتية فى القرآن المكى (الخمر) التى كانت تصنع من ثمرات النخيل والعنب، والقرآن نص على ذلك من قبيل تصوير الواقع المكى فى ذلك الوقت.

ثانيا: فى القسم المدنى:
فى المدينة كانت الطبيعة غنية عنها فى مكة، لأن أهل المدينة كانوا يميلون إلى الاشتغال بالزراعة، وكانوا يعتنون بغرس الأشجار المثمرة.

وعندما انتقل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة انقسم المجتمع المدنى إلى طبقتين هما طبقة المهاجرين وطبقة الأنصار. وتحت هاتين الطبقتين عدة طبقات، فأصبح هناك فقراء ومساكين، وأصبح هناك محاربون غزاة فى سبيل الله، وعاملون لحساب الدولة،

وعاملون فى المساجد لأجل هذا كان لابد من قوانين جديدة تضمن لهم سبل الحياة مثل غيرهم، ولذا تحول الحديث عن النبات إلى أمور أخرى، أمور يعيش عليها بشر غير ما لكى الأرض وتتمثل هذه الأمور فى: الزكاة - الانفاق - الصدقة - الصوم، ومن هنا يظهر الاختلاف بين. المجتمع المكى والمجتمع المدنى. المجتمع المكى كان فقيرا، لذلك لم تفرض فيه هذه الأشياء. المجتمع المدنى كان غينا لذلك اختاره الله لرسوله وللمهاجرين معه حتى يجدوا مايعيشون عليه.

ومن الأمور التى تغيرت فى المجتمع المدنى-وهى من النبات-الخمر التى كانت معاقرتها منتشرة فى المجتمع المكى، ولكنها فى المجتمع المدنى حرمت تمشيا مع سياسة الإصلاح الإجتماعى والأخلاقى.

أما الفصل الرابع: فكان عن دور النبات فى الجنة والنار وقسمت هذا الفصل إلى قسمين:

١- النبات فى الجنة.

٢- النبات فى النار.

فى القسم الأول: تحدثت عن الرزق فى الجنة، وقلت إن مصدره الفواكه من النخل والرمان والسدر والطلح، وذكرت كلام المفسرين فى السدر والطلح.

وتطرق الحديث إلى الظل فى الجنة، لأن القرآن احتفل به لترغيب أهل مكة فى الإيمان بالله القادر على أن يأتى لهم، بما تفتقده بيئتهم، وتصبو إليه نفوسهم لأن الظل من مراتع البدوى ومناعمه، التى يطمح إليها خياله وتهتف بها أشواقه.

والجمال عنصر مقصود فى الجنة، لأن اللون الأخضر دائم فى الجنة غير منقطع، والخضرة أحسن الألوان والنفس تنبسط بها أكثر من غيرها من الألوان، حتى أن ثياب أهل الجنة وصف بالخضرة.

وفى القسم الثانى: من هذا الفصل تحدثت عن طعام أهل النار،وقلت إن مرده إلي شجرة الزقوم التى ذكرت فى ثلاث آيات مكية،لأن أهل مكة أنكروا الإله. والضريع والغسلين كذلك من أطعمة أهل النار.

والقرآن صور الظل فى النار بصورة منفرة، وهذا طبيعى لأنه من دخان أجساد من أدخلوا فيها.

أما الفصل الخامس: فكان جوهر هذا البحث وذلك لوضوح الصورة النباتية فيه عن غيره من الفصول، وهو عن "النبات وضرب الأمثال فى القرآن" وفى الأمثال لاحظت أن النبات كان طرفا ثانيا فى بعضها.

وقسمت هذا الفصل قسمين:

١- النبات وضرب الأمثال فى القرآن المكى.

٢- النبات وضرب الأمثال فى القرآن المدنى.

فى القـــرآن المكـــى: لاحظـــت أن النبات كان مشبها به فى أكثر من موضوع فى أمثال القرآن.

فمثلا اتخذ مشبها به فى الآيات التى تتحدث عن مسألة البعث، التى أنكرها كفارمكة عندما نزل القرآن، ومن أجل هذا ألح القرآن على اقناعهم بمختلف الأدلة والبراهين.

ولجأ القرآن إلى التمثيل يصور به فناء هذا العالم الذى نراه مزدهرا أمامنا عامرا بألوان الجمال. فيجد فى الزرع يرتوى بالماء فيصح بهيجا، نضرا يعجب رائيه، ولكن لايلبث أن يذبل ويصفر ويصبح هشيما تذروه الرياح، يجد القرآن فى ذلك شبها لهذه الحياة الدنيا.

ومن دلائـــل التنويع فى الأمثال التى ضربها القرآن لأهل مكة مثل للقلب الإنسانى، إذ يشبه بالأرض الطيبة، والقلب الخبيث إذ يشبه بالأرض الخبيثة، لأن كليهمامنبت زرع، ومأتى ثمر.

وفى سياق الطيب والخبيث يضرب الله مثلا للكلمة الطبية ومثلا للكلمة الخبيثة. الكلمة الطبية كالشجرة الطيبة ثابتة مثمرة. والكلمة الخبيثة كالشجرة الخبيثة قد تهيج وتتعالى وتتشابك، ولكنها تظل هشة، وتظل جذورها فى التربة، وما هى إلا فترة ثم تجتث من فوق الأرض فلا قرار لها ولابقاء.

وفى سورة الكهف مثل استغل فيه النبات لابراز قدرة الله تعالى، وهو مثل ورد فى شكل قصة. وفيه نلحظ مقارنة بين رجلين أحدهما له جنتان فيهما من كل صنوف النبات، ولم يحمد ربه على هذه النعم. أما الآخر فكان رجلا فقيرا لايملك شيئا، ورغم ذلك كان حامدا لله شاكرا له على نعمه وكانت النتيجة أن أذهب الله كل ما يملك الغنى، ولم يبق له منه شيئا، جزاء له على كفره وعناده.

وفى القسم المدنى: تناولت الأمثال القرآنية التى كان النبات طرفا ثانيا فيها عدة مسائل منها فناء الحياة الدنيا، كما وصفها القرآن للمدنيين.

وفى القرآن المدنى أمثال تحدثت عن الانفاق فى سبيل الله وشبهت حال المنفقين فى زيادة أموالهم وتضاعف حسناتهم بحال النبات فى نموه واخراج ثمره.

ولاشك أن من أروع الأمثال القرآنية فى القرآن المدنى مثلا يصور الله من خلاله استقرار نوره والإيمان به فى قلب المؤمن، حيث شبه هذا الايمان وهذا الفيض الإلهى بفتيلة مضيئة داخل مصباح، المصباح داخل زجاجة، هذه صورة ثم شبه هذه الصورة بصورة أخرى تتمثل فى الكوكب اللؤلؤى الذى يستمد ضوءه من شجرة زيتونة لايحدد مكانها ولازمانها. وهذا هو دور شجرة الزيتون فى هذا المثل.

ويجد القرآن فى الزرع وقدنبت ضئيلا ضعيفا ثم لايلبث ساقه، أن يقوى بما ينبت حوله من البراعم، فيشتد بها ساعده، ويغلظ حتى يصبح بهجة الزارع وموضع إعجابه. يجد فى ذلك صورة شديدة المجاورة لصورة أصحاب محمد، فقد بدأوا ضعافا قلة ثم أخذوا فى الكثرة والنماء ،حتى اشتد ساعدهم، وقوى عضدهم، وصاروا قوة تملأ قلب محمد بهجة، وقلب الكفار حقدا وغيظا.

والفصل السادس: كان عن دورالنبـــات فى القصة القرآنية، إذ كان له دور فى القصـــص الآتية: أدم - موســـي - مريـــم - يوسف - يونـــس - محمد - ســـبأ - أصحاب الجنة - إبراهيم.

١-فـــى قصـــة آدم:

نلاحظ أن أدم أخرج من الجنة بســـبب النبات وذلك عندما عصـى ربه بالأكـل من الشجرة التى حرمها ربه عليـــه وكان ذلك نتيجة وسوسة ابليس له وحثه على الأكل من الشجرة بدعوى أنها شجرة الخلد، والملك الذى لايبلى.

وتجربة آدم هذه كانت تربية واعدادا لهذا الخليقة، وكانت ايقاظا للقوى المذخورة فى كيانه، وكانت تدريبا له على تلقى الغواية وتذوق العاقبة وتجرع الندامة.

٢-فى قصـة موســى:

لاحظت للنبات أكثر من دور: أولها عندما تحامل على عصاه فى المشى، وهش بها أوراق الشجر لتأكله غنمه وثانيهما: عندما نزل موسى نبيا على قوم فرعون،وتحداهم بعصاه تلك فلم يؤمنوا به فعاقبهم الله تعالى بالجدب وضيق المعيشة لعلهم يتذكرون ضعفهم أمام قدرة الله.

وأبرز أدوار النبات فى قصة موسى يظهر عندما سأله بنو اسرائيل نوعا آخر من الطعام وهم فى التيه، حيث سألوه أن يبد لهم المن والسلوى بما تنبت الأرض من البقل والقثاء والفوم والعدس والبصل، فباءوا بغضب من الله.

٣- قصة مريم:

لم يذكر فيها من النبات سوى النخلة، ولكنها ذكرت قائمة بدور أساسى، إذ أثمرت فى غير موعد الثمر، لتدر الرزق على مريم وهى فى حالة مخاض.

٤- قصة يوسف:

وفيها رأي الملك فى منامة سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات وهى رؤيا أقلقته وطلب من يفسرها له، فلم يجد غير يوسف، الذي فسرها له تفسيرا لايقبل جدلا ولا محاجة. حين أول البقر السمان والسنبلات الخضر بسنين مخاصيب. والعجاف واليابسات بسنين مجدبة، ثم بشرهم بأن العام الثامن يجىء مباركا كثير الخير غزير النعم. وهذا التأويل كان سببا فى اطمئنان أولئك القوم، وتأهبهم لما سيحل بهم فى السنين الشداد. كذلك كان سببا فى خروج يوسف من السجن ورفعه مكانا عليا، إذ جعل قائما على خزائن الأرض.

٥- قصة يونس:

ذكر من النبات فى قصة يونس اليقطين، إذأنبتها الله تعالى عليه وهو فى موقف ضيق لأنها تجمع خصالا برد الظل، والملمس، وعظم الورق، وأن الذباب لايقع عليها.

٦- قصة إبراهيم:

مكة بلد لازرع ولاغرس فيه، لذلك عندما حل بها إبراهيم دعا للمؤمنين من سكانها بالأمن والتوسعة والخصب والرزق من الثمر لأن هذه أمور تدعو الإنسان إلى الذهاب إلى تلك البلدة.

٧- فى سيرة محمد صلى الله عليه وسلم:

لاحظت للنبات أكثر من دور، أولا: عندما تحداه أهل مكةأن يأتى لهم بجنة من عنب ونخيل ويفجر الأنهار خلالها تفجيرا. وهذا شيء لم يرده الله لرسوله، ولكنه أراد أن يكون قدوة لأمته وهو فى الوقت ذاته يسعى لرزقه كما يسعى رجل من أمته.

وصورة أخرى للنبات فى سيرة محمد وفى رحلته فى سبيل الدعوة إلى الإيمان بالله نلاحظها عندما بايعه ألف وأربعمائة على الإيمان تحت الشجرة فى أرض الحديبية.

٨- سبأ وجنتاهم:

كانت سبأ ملوك اليمن، وكانوا فى نعمة وغبطة فى بلادهم وعيشهم واتساع أرزاقهم وزروعهم وثمارهم،ولكنهم أعرضوا عن ذكر الله وشكره على تلك النعم فعاقبهم الله بأن بدل ثمار جنتيهم إلى أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل. وفى هذا موعظة لقريش وتحذير لهم لكفرهم وجحودهم لنعمة الله، الذى رزقهم وأطعمهم من جوع وآمنهم من خوف.

٩- قصة أصحاب الجنة فى سورة القلم:

وهى قصة ذكرها الله لأهل مكة. يحذرهم فيها من عاقبة البطر بالنعمة. ومن خلال نصوصها نلمح مجموعة من الناس ساذجة بدائية أشبه فى تفكيرها بأهل الريف البسطاء ولعل هذا المستوى من النماذج البشرية كان أقرب إلى المخاطبين بالقصة الذين كانوا يعاندون ويحجدون.

وفى الفصل السابع والأخير: تحدثت عن كيفية تسبيح النبات بحمد الله، بوصفه كائنا حيا يتضح فيه الانقياد والخضوع للإله الأعلى.

وذكرت اختلاف العلماء فى تسبيح الكائنات الحية غير الانسان. فمنهم من قال إن التسبيح يكون بالقول مثل الإنسان. ومنهم من قال إن التسبيح يكون بدلالة

الأحـــوال على توحيد الله. ثم أوضحت أن النبات يسبح بالطريق الثانى وكان هذارأي الامام فخر الدين الرازى.

ودلالة أحوال النبات على توحيد الله تكون بسجود ظلاله،أي ميلانها من جانب إلى جانب وطولها بسبب انحطاط الشمس وقصرها بسبب ارتفاع الشمس.

والهدف من هذا الفصل هو اظهار عبادة غير الإنسان لله، وفى هذا توجيه لأهل مكة الذين عاندوا محمدا وجادلوه، فقال لهم إن هذا الكون كله ساجد لله وأنتم أيها الجاحدون تدعون آلهة من دون الله.

لم يبق بعد هذا سوى أن أؤكد شكرى وتقديرى لأستاذى الفاضل الأستاذ الدكتور/ عاطف جودة نصر رئيس القسم الذى تفضل مشكورا بالإشراف على هذه الرسالة. وأتوجه بالشكر إلي السادة. الأساتذة أعضاء لجنة المناقشة، وأشكر لهم جهدهم وتواضعهم.

مصادر ومراجع البحث

المصادر والمراجع

القـرآن الكريـــم:

ابن تيميـة - تقى الدين أحمد بن شهاب: "**تفسير سورة النور**"، الطبعة الأولى ،مطبعة الأمانة، نشر دار الوعى، حلب، ١٩٧٧.

ابن كثيـــر - الحافظ عماد الدين أبو الفداء اسماعيل:
١- "**تفسير القرآن العظيم**" ،مكتبة مصر.
٢- "**قصص الأنبياء**"، تحقيق محمد أحمد عبد العزيز، دارالحديث.

ابن مسكويه - أبو على أحمد بن مسكويه: "**الحكمة الخالدة**"، جاويذان خرد، تحقيق د. عبد الرحمن بدوى، دار الأندلس.

ابو حاتم السجستانى: "**كتاب النخل**"، دار اللواء للنشر، مؤسسة الرسالة.

ابو حيان الاندلسى- محمد بن يوسف: "**تفسير البحر المحيط**"، دارالفكر العربى، الطبعة الثانية ١٩٨٣.

ابو السعود العمادى: "**ارشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم**".

د. أحمـد بـدوى: "**من بلاغة القرآن**"، نهضة مصر، الطبعة الثانية.

د. أحمد جمال العمرى: "**درسات فى التفسير الموضوعى للقصص القرآنى**"، الخانجى، طبعة أولي ١٩٨٦م.

أحمد رافـت: "**الألوان فى القرآن**" ، مطبعة الأمانة،نشر دار المعارف، ١٩٩٠م.

الالوســـى- شهاب الدين السيد محمود: "**روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى**"، دار احياء التراث العربى، بيروت، الطبعةالرابعة، ١٩٨٥م.

الباقلانـــى: "اعجاز القرآن"، دار المعارف، تحقيق السيد صقر.

البيضاوى - ناصر الدين أبو سعيد عبدالله بن عمر بن محمد: "أنوار التنزيل وأسرار التأويل"، دار الجيل، بيروت.

الجرجانـى - عبد القاهر
١- الرسالة الشافية "فى الاعجاز القرآنى ضمن ثلاث رسائل فى اعجاز القرآن"، دارالمعارف، الطبعة الرابعة ، تحقيق د.محمد خلف الله، د.محمد زغلول سلام.
٢- "دلائل الاعجاز فى علم المعانى"، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٨م.

جمال الكومى: "الماء سائل الحياة"، دار الاعتصام، ١٩٩٠م.

الخطابـــى - أبو سليمان محمد بن محمد: "اعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل فى اعجاز القرآن"، دار المعارف ، الطبعة الرابعة.

الـــرازى - فخر الدين محمد: مفاتيح الغيب "التفسير الكبير" دار الفكر العربى ١٩٨١،دار الكتب العلمية ١٩٩٠م.

الرمانـــى - أبو الحسن على بن عيسى: "النكت فى اعجاز القرآن"، ضمن ثلاث رسائل، دارالمعارف، الطبعة الرابعة.

الزركشى: "البرهـــان فى علـوم القرآن"، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، الطبعة الثانية.

الزمخشرى - أبو القاسم جارالله محمود: "الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل"، دار الفكر العربى.

سـيد قطـب: ١- "التصوير الفنى فى القرآن"، دار المعارف، الطبعة العاشرة.
٢- "فى ظلال القرآن"، دار الشروق، الطبعة السابعة عشر.
٣- "مشاهد القيامة فى القرآن"، دار الشروق الطبعة الحادية عشر.

السيوطى: "معترك الأقران فى إعجاز القرآن"،تحقيق محمد على البجاوى، دار الفكر العربى.

د. شوقى ضيف: "تفسير سورة الرحمن وسور قصار"، دارالمعارف، الطبعة الثانية.

د. طه حسين: "مرآة الإسلام" ، دارالمعارف الطبعة السابعة.

الطبرى - أبو جعفر محمد بن جرير: "جامع البيان فى تفسير القرآن"، دارالمعرفة، بيروت،١٩٨٦م.

د. عائشة عبدالرحمن:
١- "التفسير البيانى للقرآن" ، دار المعارف، الطبعة السابعة.
٢- "الإعجاز البيانى ومسائل ابن الأزرق"، دار المعارف الطبعة الثانية.

د. عاطف جودة نصر: "الخيال، مفهوماته ووظائفه"، الهيئة العامة ١٩٨٤م.

د. عبد الوهاب النجار: "قصص الأنبياء"، مكتبة دار التراث.

د. عز الدين اسماعيل: "نصوص قرآنية فى النفس الإنسانية"، مكتبة غريب.

على النجدى ناصف: "مع القرآن الكريم"، دار المعارف، بدون تاريخ.

الغزالى (الإمام) أبو حامد محمد بن أحمد:
١- "احياء علوم الدين"، دارالكتب العلمية،بيروت، ١٩٨٦م.
٢- "مشكاة الأنوار" تحقيق د. أبو العلا عفيفى، الهيئة العامة ١٩٧٣م.

د. فتحى عامر: "المعانى الثانية فى الأسلوب القرآنى"،منشأة المعارف بالاسكندرية، بدون تاريخ.

القرطبى - أبو عبد الله محمد بن أحمد: "الجامع لأحكام القرآن"، دار احياء التراث، بيروت.

الماوردى - أبو الحسن على بن محمد بن حبيب: "النكت والعيون"، دار الكتب العلمية، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٩٢م.

د. محمد بيومى مهران: "تاريخ العرب القديم"، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ١٩٨٩م.

محمد رشاد الطوبى: "وجعلنا من الماء كل شيء حى".، دارالمعارف، اقرأ، الطبعة الثانية.

محمد رشيد رضا: "تفسير القرآن الحكيم" "المنار" دار المعرفة، بيروت، الهيئة العامة، ١٩٩٠م.

محمد عبده: "تفسير جزء عم"، دار ابن زيدون، بيروت ، الطبعة الثانية، ١٩٨٩م.

د. محمد على الصابونى: "صفوة التفاسير"، دار القرآن ، بيروت.

محمد فؤاد عبدالباقى: "المعجم المفهرس لألفاظ القرآن"، دارالحدث، ١٩٨٧م.

د. محمد محمود عبدالله: "مظاهر كونية فى معالم قرآنية"، مؤسسة الخليج العربى، ١٩٩٢م.

د. محمود بن الشريف: "الأمثال فى القرآن"، اقرأ، دار المعارف،الطبعة الرابعة.

د.نظمى خليل أبوالعطا: "اعجاز النبات فى القرآن"، مكتبة النور.

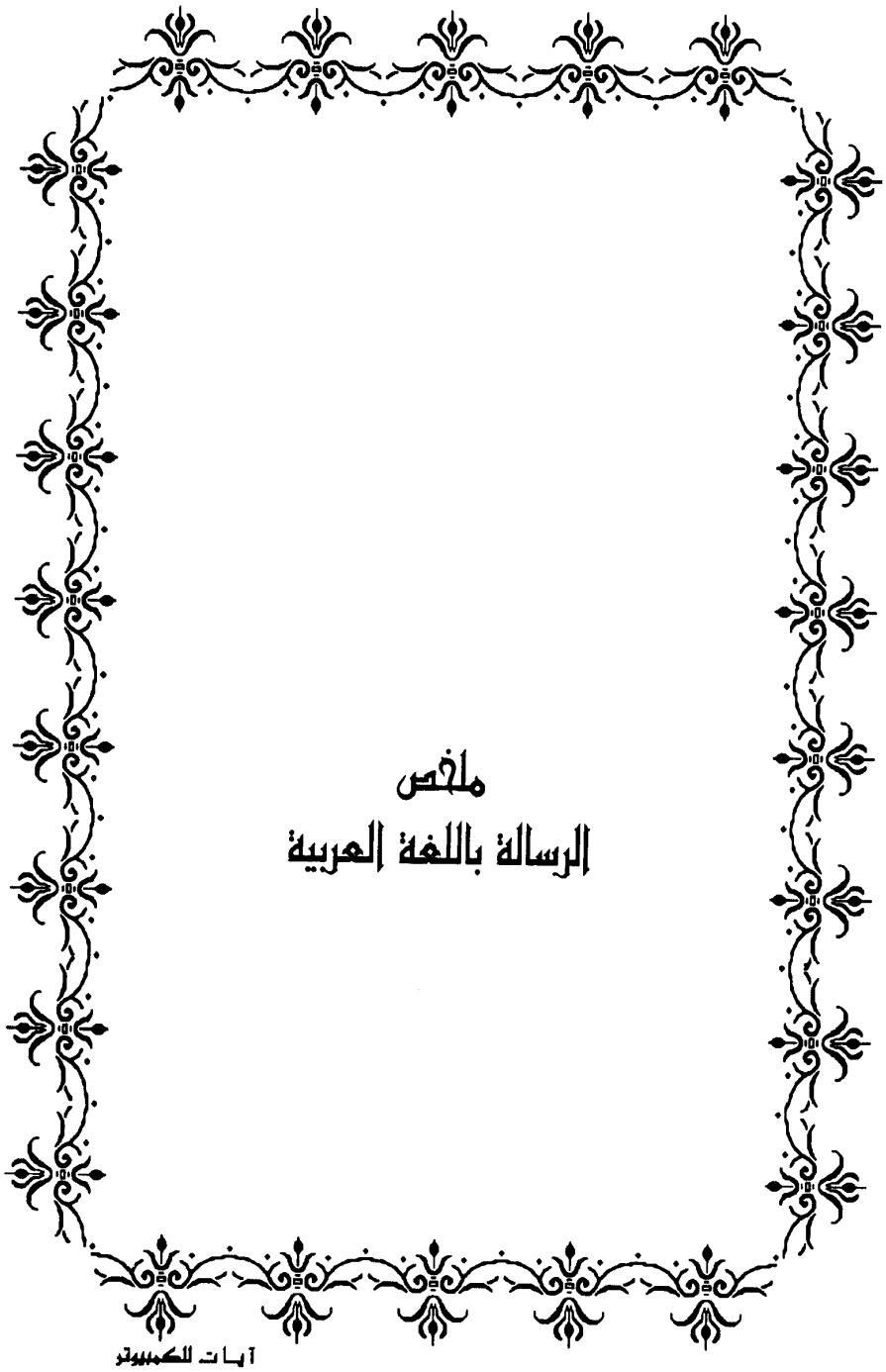

ملخص
الرسالة باللغة العربية

آيات للكمبيوتر

جامعة عين شمس
كلية الآداب
قسم اللغة العربية وآدابها

الصورة النباتية في القرآن
"مفهومها ودلالاتها"

الملخص العربي

رسالة ماجستير

تحت اشراف
الأستاذ الدكتور
عاطف جودة نصر
رئيس قسم اللغة العربية

مقدمة من الطالب
أحمد عبد الله عيسى

١٤١٥هـ-١٩٩٥م

الملخص العربي

هذه الرسالة خاصة بالنبات فى القرآن الكريم.والنبات ذكر فى آيات كثيرة من القرآن، مما جعل موضوعاته تتعدد وتتفرع لتشمل جوانب الحياة.

لقد اتخذ النبات دليلا على فناء الحياة الدنيا، وعلى البعث والنشور، واتخذ مشبها به فى الأمثال القرآنية، واتخذ غذاء للإنسان والحيوان، واتخذ عونا للأنبياء فى القصة القرآنية، وعذابا وانتقاما لمن عصى الله من أقوام الأنبياء واتخذ غذاء لمن يدخلون الجنة، وعذابا لمن يدخلون النار.

ومن هنا حددت منهج البحث فى سبعة فصول، فى البداية صنعت معجمامفهرسا للآيات النباتية التى استخدمتها فى البحث وقسمتها تقسيما موضوعيا، حيث جمعت الآيات التى تتحد فى الموضوع.

وبعد هذا المعجم جاء الفصل الأول،وكان عن الظواهر الكونية فى السماء والأرض وعلاقتها بالنبات. فالسماء تمنح الأرض الحياة بما تدره عليها من أمطار وأنوار تيسر للمخلوق عليها سبل الحياة. وبهذا يعتبر كل كائن حى على ظهر الأرض وليد هذين الأبوين السماء والأرض.

وكانت النتيجة هى أن أُوضحت أن النبات من بين الكائنات الحية التى نتجت عن علاقة السماء بالأرض بل إنه يعتبر أهمها لأن عليه غذاء الإنسان.

وفى الفصل الثانى: تحدثت عن علاقة الماء بالنبات ،، وأوضحت أن كل كائن حى مصدره الماء، وقادنى هذا إلى الحديث عن دورالنبات فى بلد صحراوى وهو مكة لأنها بيئة فقيرة إلى الماء،وتجد معاناة فى سبيل الحصول عليه.

وفى هذا الفصل تحدثت عن قضية البعث التى استدل القرآن عليها بالنبات،، حيث شبة إحياء الاجسام بعدما صارت عظاما بالية بإنزال الماء على الأرض ثم اخراج النبات منها.

أما الفصل الثالث: فكان عن علاقة النبات بحياة الإنسان وموته،لأن فى وجود النبات حياة للنسان، وفى عدم وجوده هلاكا له.

وقسمت هذا الفصل قسمين:

١- النبات وعلاقته بالحياة والموت فى القرآن المكى.

٢- النبات وعلاقته بالحياة والموت فى القرآن المدنى.

فى القسم المكى: أثبت أهمية النبات بالنسبة لأهل مكة الذين لم يكونوا زراعا ،وإنما كانوا أقواما غلبت عليهم البداوة. لذلك انتشرت بين بعض القبائل ظاهرة الوأد بسبب رغبتهم فى التخفف من الفقر.

وكذلك تحدثت فى هذا القسم عن الخمر التى كانت تصنع من النبات، وعن النارالتى اتخذت من أغصان النبات، وعن أهمية الظل بالنسبة لأهل الجزيرة العربية.

فى المدينة كانت الطبيعة غنية عنها فى مكة،لأن أهل المدينة كانوا يميلون إلى الاشتغال بالزراعة وكانوا يعتنون بغرس الأشجار المثمرة.

ولذلك عندما انتقل إليها الرسول والمهاجرون، أصبح هناك قوانين جديدة تضمن لجميع الطبقات سبل الحياة، حيث فرضت الزكاة.

والفصل الرابع: كان عن النبات فى الجنة والنار. تحدثت عن السدر والطلح والنخل والرمان فى الجنة، وعن الزقوم فى النار.

والفصل الخامس: كان عن النبات وضرب الأمثال فى القرآن، وقسمت هذا الفصل قسمين:

١- النبات وضرب الأمثال فى القرآن المكى.

٢- النبات وضرب الأمثال فى القرآن المدنى.

ففى القرآن المكى ورد النبات فى سياق الآيات التى تتحدث عن البعث، وعن فناء الحياة الدنيا وعن الطيب والخبيث.

وفى القرآن المدنى ورد النبات فى سياق الآيات التى تحدثت عن الانفاق، والايمان بالله، وصحابة محمد عليه السلام.

والفصل السادس: كان عن دور النبات فى القصص القرآنى إذ كان له دور فى القصص الآتية: آدم - موسى - مريم - يوسف - يونس -محمد - سبأ- أصحاب الجنة - إبراهيم.

وفى الفصل السابع: تحدثت عن كيفية تسبيح النبات بحمد الله، بوصفه كائنا حيا يتضح فيه الانقياد والخضوع لله.

وذكرت اختلاف العلماء فى تسبيح الكائنات الحية غيرالإنسان. فمنهم من قال إن التسبيح يكون بالقول مثل الإنسان، ومنهم من قال إن التسبيح يكون بدلالة الأحوال على التوحيد. ثم أوضحت أن النبات يسبح بالطريق الثانى.

ثم جاءت الخاتمة توضح أهم النتائج التى قدمها البحث للمكتبة العربية والإسلامية.

ونستخلص من هذه الدراسة أن النبات من الموضوعات الهامة فى القرآن، لتعدد مساقاته، ودلالاته، واختلافها من سورة إلى سورة، ومن آية إلى آية.

ملخص
الرسالة باللغة الإنجليزية

آيات للكمبيوتر

This thesis is about plant in the Holy Quran. Plant is mentioned in the Holy Quran and his subjects are many and comprehensive that covers all walks of life.

Plant was taken as an example of the richness of our life and the hereafter. It is mentioned in the wise sayings of the Holy Quran. It is used as a food for man and animals and it was a helping agent for prophets in the Quran stories and a punishment for the disobedients. It is used as a food for those who enter paradise and a torture for the men going to hell..

Then, I made the research in seven chapters. In the beginning, I made a dictionary for the Quran verses on plant used in the thesis. I devided them objectively as I used the verses of the same subject.

After this dictionary came the first chapter: It's about the cosmic elements in heaven and earth and its relation to plant.

Heaven gives earth life by rains and light. Every creature is influenced by this. Plant is the result of the relation between heaven and earth as it's the food for man.

In the second chapter, I discussed the relation between water and plant as every creature is found by water. I discussed the role of plant in a desert country (Mecca) because it is poor in and find dificulty in getting it.

In this chapter, I dicussed the issue of the hereafter that was mentioned in the Holy Quran, in the verses on plant as the Quran likened bodies by giving water to earth and then the plant grows from it.

The third chapter is about its relation to man's life and death, because plant is the cause for man's life and his destruction.

I divided this chapter into two parts:

1- Plant and its relation to man's life and death as in the Holy Quran of Mecca.

2- Plant and its relation to life and death as in the Holy Quran of Medina.

In the Mecca section, I proved the importance of plant to the people of Mecca who were not farmers but nomads. so among tribes spread the killing of girls because of poverty.

I discussed also the drink which was made of plant and fire taken from the plant. I discussed also the importance of shadow for the people of the Arabian peninisula.

In Medina nature was richer than in Mecca. They were farmers. They planted the fruitful plants.

After the coming of the prophet, there were new rules for giving life to all people there. Zakat (the poor Alms) also was decreed.

In the fourth chapter, I discussed plant in paradise and hell. I discussed plants like palm trees, bananas etc..in paradise and Zakocum tree in Hell.

In the fifth chapter, I spoke about plant and the wise sayings of the Holly Quran. I devided this chapter into two parts:

1- Plant in the wise sayings in the Holy Quran of Mecca.

2- Plant in the wise sayings in the Holy Quran of Medina.

In Mecca Quran, plant is mentioned in the verses of the hereafter and the destruction of life upon earth and the good and the bad.

In Medina Quran, plant was mentioned in the verses of expenditure, belief in God and the companions (Sahaba) of Mohammed (May peace be upon him).

The six chapter is about the role of plant in the Quran stories like the stories of Adam, Moussa, the Virgin Mary, Youssif, Younis, Mohammed, Saba a, the peoples of paradise and Ibrahim.

In the seventh chapter, I discussed the worship of plant as a living creature which manifests a complete submission to God.

I discussed the different opinions of scientists about the worship of living creatures other than man. Some of them said, it is by words like man, and some others said it's by conditions of making Allah the only one God. I then mentioned that plant worship is by the second method.

Finally came the conclusion that points out the most important result of my research for the Arabic and Islamic library. I concluded from this study that plant is one of the most important subjects in the Holy Quran because of its many concepts and references and their differences from one chapter to the other and from one verse to the other.

Ain Shams University.
Faculty of Arts
Arabic Department

PLANT IN THE HOLY QURAN "ITS MEANING AND CONCEPTS"

M.A. THESIS
Under Supervision of

Prof. Dr.
Atif Guda Nasr
Head of the Arabic Department

By

Ahmed Abdullah Isa

1995 - 1415